رجاء رنتيسي

موتيَ المؤجَّل

رواية



مَوتي المؤجَّل

رواية

رجـاء رنـتـيـسـي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى

1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1690-0

توزيع

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

لوحة الغلاف: الفنان بشار خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

الإهداء

إلى كل من أوجل موته

ولم يحظَ بذكرى لاسم

أو رسم يليق بعينيه

الحبيبة أمل...

أترين اللذين يجلسان أمام البيت؟

إنهما طفلان كطيف الحلم

انظري جيداً لما يحملان

الطعم ذاته الذي ذاقه آباؤهما

ما هو مقدّر سيحدث

سيعترفان يوماً ما بحسرة وأسى

أنني قد قلت الحقيقة

عامر الفني

أبريل/نيسان - 1992

الفصل الأول

النهاية

الفوهة التي اندفعت باتجاه رأسي كانت فوهة مسدس! هي الرصاصة القاتلة التي اخترقت الأنسجة محدثةً ذلك الضجيج الهائل المدوي في رأسي. وأما تلك الذاكرة المخزّنة في طيات النسيج، طوال تلك السنين، فها هي تخرج رويداً رويداً، مزيلةً في طريقها بشوائب كانت قد علقت بها، ومنعت عنها نقاء الرؤية وصفاءها. ها أنا الآن - عامر المنسي - أقف أمام ذاكرتي، أنفصل عنها، وقد تحررت أخيراً من عبء تلك الذاكرة. أراها بوضوح تغادرني وتحرّرني فأصبح خفيفاً، لا ينتابني أي ألمٍ في أحشائي أو صداعٍ في رأسي.

... عينان تحدّقان إليّ وتصمّمان على الفعل. ويد تدفع بفوهة مسدسٍ تجاهَ رأسي. وصوت دوّى عالياً مزّق رأسي مختلطاً بنداء اسمي "عامر". ابتسامة عالجت شفتيّ، ولاحت الفكرة المضحكة في رأسي: "رصاصة لعينة اخترقت جمجمتي... ماذا يعني ذلك؟!".

صوت صراخ زوجتي وأنا أستدير مستجيباً للنداء يملأ غرفة نومي، ودماء تملأ أغطية السرير. يدا زوجتي تغرقان في بركة الدم التي أحدثها الثقب في رأسي، وبؤبؤا عينيها يكادان يخرجان من مآقيهما وهي لا تكف عن الصراخ.

يلقي قاتلي مسدّسه بعيداً، ويضع يديه على فمها. تحاول أن تدفعه عنها وتعجز عن ذلك. تتملّكها قوة كبيرة عندما يأتي صراخ ابني الأكبر من الغرفة المجاورة، وقد أيقظه صراخ أمه. وتركض متملّصةً من قبضة قاتلي، تحضن الصغير وتنطلق به مسرعةً إلى خارج

الشقة التي كنت أقطنها. يركض هو خلفها، محاولاً إمساكها من جديد، وأركض أنا محاولاً الإمساك به، ولكنني أعجز.

أرى جسدي ملقىً على السرير وأحاول جاهداً أن أنهض به من نومه الأخير فأعجز. يتملّكني الغضب. أحاول الصراخ فأعجز. أنا لست أنا، وأنا لست هناك. أنا الآن في بداية النفق، أنا في بداية النفق. جسدي ملقىً على السرير، وقد اخترقت عيني رصاصة أحدثت ثقباً كبيراً في رأسي. ينتابني إحساس غريب بالشفقة على جسدي. أرغب بالعودة إليه للحظات كي أودّع فيه سكينة تملّكني الآن. أدرك أن جسدي النائم قد فرّ مني وإلى الأبد. جسدي ليس أنا وأنا لست جسدي.

أستسلم لموتي، وأقبع مراقباً أحداثاً تتالت بعد غيابي عن دائرة الفعل. ينطلق قاتلي ككلب مسعور، يطلق ساقيه للريح، يهرب وكأن عمره الباقي قد سبقه، وهو يجري لاهثاً محاولاً الإمساك بأطرافه. يغيب عن دائرة الحدث.

زوجتي تنتحب، تصرخ، دون أن تعير اهتماماً لوجود طفلي المذعور يقف أمامها مبلّلاً بنطاله خوفاً ورعباً. لا تأبه للدم الذي يلوّث يديها، أو لبول ابني ملطّخاً ملابسها، وهي التي لطالما كانت حريصة كل الحرص على أناقتها. تظل تنتحب وتصرخ ولكنها فجأة تهرع إلى الهاتف، تدير رقماً أحفظه غيباً، تنتظر قليلاً وهي تشهق ببكاء وعويل لا يتوقّفان، وعند سماعها صوت أمي المذعورة من الجهة الأخرى تصرخ بعلوّ صوتها:

"مات عامر، مات عامر".

ترد أمي بصراخ وعويل: "قتلوه، قتلوه".

(لا تأبه أن ترد على صراخ أمي من الجانب الآخر).

تلقي بالهاتف بعيداً، وتهرع مرة أخرى تجاه ابني المتجمِّد في مكانه مراقباً ما يحصل، ومدوِّناً في ذهنه كلّ لحظة ستسهم في تشكيل حياته القادمة. تنظر إليه وتغمض عينيها وتجهش بالبكاء من جديد، وكأنها أصيبت بلوثة جنون، تحتضنه للحظات ومن ثم تهرع إلى الخارج معاودة الصراخ والعويل.

صراخها في صمت الليل يوقظ الحي بأكمله. تُضاء المصابيح في الشقق المقابلة والأخرى المجاورة لشقتي. تنفتح أبوابها الخارجية ويهرع الجيران باتجاه شقتي، ليتجمّعوا أمام الباب الرئيس. الجار الذي يقطن في الشقة المقابلة يسرع إلى زوجتي التي هدّها الصراخ فتكوّمت على مدخل الشقة تحتضن ابني بين ذراعيها، وتتأوّه بصوت رتيب يوحي بالمأساة. ثم يقطع حبل التساؤلات المنهمرة حول تفاصيل الحدث، وينتزع ولدي من حضن زوجتي، ليحمله بين ذراعيه ويركض به بعيداً عن هوْل اللحظة. يبدو أنه أودعه في مكان آمَنَ من فضول النظرات وإحساسات الشفقة التي أحاطت به. ها هو ذلك الجار الطيِّب يعود مرة أخرى راكضاً يسأل زوجتي عن ابنتي وابني الصغير، تشير هي بيدها إلى الداخل، يدخل شقتي، ويتّجه إلى غرفة أطفالي، ثم يمر بغرفتي متفقّداً جسدي المسجّى على السرير، يطلق صرخة مكتومة، ويتمتم بكلمات توحي ببشاعة ما رأى. ولكنه رغم ذلك، يتوجّه بشجاعة إلى سرير ابنتي التي ما زالت، رغم كل ما جرى، تغمض عينيها وكأنها تغلقهما عن الواقع. يحملها بين ذراعيه، ويركض بها ليودعها بجانب شقيقها في مكانٍ آمِنٍ أيضاً. أما أصغر أبنائي، الذي غاب عن الحدث وتابع أحلامه دون أن تقطعها لحظات

موتي، فقد بدا، منذ اللحظة التي فتح فيها عينيه هانئاً سعيداً، وقد لازمته ابتسامة لا أدري ما سببها. ربما لم يتنقل من عالم أحلامه البريئة بعد. يحمله أحد الجيران ويركض به إلى الخارج.

يختفي أطفالي الثلاثة عن المشهد، وأدرك أنا أن اختفائي عن حياقم أصبح أبديًّا.

ما هي إلا فترة قليلة من الوقت حتى تظهر أمي بوجهها المتقع. تسير أمام أبـي الذي يجر قدميه وراءها ببطء، وكأنه يذهب إلى مقصلة. هي تولول كما عادتها دائماً، إذ تصيح بانفعال وتهز رأسها غير مصدِّقة. أما أبـي، فقد بدا كما هو تماماً منذ أن وعيت ملامح وجهه، تعابير يعلوها الانكسار والشفقة على نفسه من مصيري الذي لم يُفاجأ به. يقف حائراً كما العادة! ليس بيده أي حيلة! يمر بتباطؤ من بين الجمع المتمركز أمام باب الشقة، ويلج باب شقتي، ثم يهبط هناك على أول مقعد تصله قدماه في غرفة جلوسي. ينفصل عمّا يجري حوله، ويتوه في دواخله، ويتمتم بكلمات لا يسمعها أحد. ولا ألحَظُ أي اهتمام منه بأيٍّ من الحاضرين مشهدَ موتي. لكني أدرك فجأة أنه يبحث عني، أجد نفسي بين أحضانه كطفل صغير، أتدثر حضنه وأشتم رائحته. أدرك أنه الآن يتحدث معي! يعود لتأنيبي من جديد، ويسألني الأسئلة ذاتها التي سألني إياها آلافَ المرات في هذا المكان نفسه. لماذا؟ ما الذي فعلته أنا لكي استحق أن تفعل أنت كل ما فعلت؟ لماذا لم تستطع تجنيبي مصيرك المؤلم؟ لماذا كان لا بدّ لي من أن أودِّعك قبل أن تودِّعني؟! هل كنت أباً سيّئاً إلى هذه الدرجة؟ أين أنت الآن وقد تركتني في العقد السابع من عمري، أحمل حملك الثقيل؟ ثلاثة أطفال بعمر البراعم! حتى موتك اخترته ثقيلاً

كما كانت حياتك! موتك هذا حِملٌ ثقيلٌ سيتدلّى على أكتافي في سنوات عمري الباقية. "آخ" يا عامر، لو أنك رحمتني من موتك! لو أنك رحمتني من موتك!

للمرة الأولى أتمكّن من الإجابة، للمرة الأولى أستطيع أن أضمّه بين ذراعيّ، أن أمرّغ على صدره طالباً الغفران. للمرة الأولى أعتذر منه. أخبره أنني أحبه، أحبّه جدًّا. وأشتم رائحة الحزن والشقاء تنبعث من مسامات جسده. أظنّه لا يراني، أظنّه لا يسمعني، هل ضاعت مني فرصتي النهائية بأن أتوسل غفرانه؟ فجأةً، وكأنه سمعني، وكأنه أحسّ بفيض من روحي بين حناياه، انكمش في مقعده متمتماً "الله يسامحك، الله يسامحك".

يتجمّع الآن في صالة بيتي أكثر من خمسين شخصاً من أفراد الشرطة والصحافة. يبدو أن موتي أثار اهتماماً خاصًّا، بعكس حياتي التي ضاعت وأنا أقضيها في محاولات حثيثة لجعلها مثيرة للاهتمام. غريب، كيف يتحلّقون أمام غرفة نومي كالذئاب التي تقتنص فرصة للسيطرة على الفريسة. أنا وجسدي في بؤرة الحدث الآن. جسدي هو الحدث، وقصتي هي الرواية، أما موتي فهو علامات السؤال على الوجوه! غريب، لماذا يكون الجسد الفاقد الروح بتلك الأهمية؟ لماذا تقوم الدنيا ولا تقعد عندما يغادر أحد منّا جسده ويتركه لهم لكي يتدبّروا أمره؟ لِمَ يحظى هذا الجسد بكل هذه الأهمية؟ ففي اللحظة التي نولد فيها يتفقّدونه كي لا يكون ناقصاً أو مشوّهاً، ومن ثم يتفقدون تفاصيله، وكأن حجم العينين ومساحة الأنف وطول الذراعين ستأتي بالمعجزات! وفي خضم الحياة يظل هذا الجسد أداة عقاب وثواب، وعندما نغادره يقيمون مراسمهم ناعين فقدانه، أما

نحن، الذين ارتدينا أجسادنا، فنحن من نُبقي بعضاً منا في فعلِ جسدٍ آخر وُلِد من رحم أجسادنا! أتراكَ صغيري ستدرك أي جزء منك يحمل بعضاً من روحي؟! أتراكِ صغيرتي ستختزلين في جسدك بعضاً من بهجة حرصت أن أحبّبها لك؛ علّك تضحكين من أعماق قلبك كما لم أفعل أنا أبداً؟!

ما زالت الأفواه تتناول الحدث. الذين يجتمعون أمام سرّ موتي توصّلوا إلى استنتاجات خاطئة. بعضهم حاول التذاكي وطرح بعض التساؤلات: هل يُعقل أن يكون الفعل انتقاماً سياسيًّا؟ أم أنه شخصيٌّ بحتٌ؟ أم ربما ضحية أخرى لتنافسٍ سياسي؟ بل يمكن أن يكون من صنع المخابرات الإسرائيلية؟

أستمع أنا إلى كل التحليلات، ولا أستطيع إيصال تحليلي. أنا الذي لم تُتَحْ لي فرصةُ الإدلاء برأيي في الأحداث إلا أتقتها. بل كنت أذهل كلّ من حولي بتحليلي لمستجداتٍ سياسية، وصدَقَ كثير من توقعاتي لأحداث كثيراً ما تنبّأت بحدوثها مسبقاً. حتى هذا الحدث الذي أودى بجسدي إلى غير رجعة، كنت قد تنبّأت به؛ فقد كنت أعلم علمَ اليقين أن موتي سيكون قريباً، ولن يكون اعتياديًّا، تماماً كما كانت حياتي. حتى إنني كنت قد كتبت مسبقاً كلماتِ نعيي وأبقيتها أمانةً لدى شقيقتي "أمل" التي لم تأخذْها على محمل الجد، بل ألقتها جانباً، واتهمتني بمحاولة إثارة الانتباه. ترى، هل ستعود إليها الآن بعد أن صدقت نبوءتي؟!

فجأةً، جاء ذلك الجار الطيّب إلى صالة بيتي مهرولاً مرّة أخرى، وملقياً بالخبر القنبلة! عرفنا الفاعل! أخبرني الصغير أن الفاعل هو شخص يدعى "صادراً"، وأنه كان يتردد إلى البيت مراراً لزيارة أبيه.

ها أنت أيها الصغير تمسك بقاتلي. كيف لفطنتك أن تستوعب روحي المعلّقة الآن ما بين بداية النفق، والباب الموصد دون جسدي؟ أتراك فهمت أني أتعلّق الآن، منتظراً إشارةً من يدك وكلمةً من فمك لتريح روحي الهائمة؟ أيها الصغير: ما الذي فعلته أنت كي تحمل فعلي الثقيل طوال حياتك؟ أيّ حمل ثقيل ستحمله بين ضلوعك طوال حياتك؟! لم أقصد أبداً أن أتركك لمصير كهذا! لم أقصد أبداً أن أحشرك منذ الآن في لحظة تخصّني أنا، تخصّني أنا فقط. سامحني أيها الصغير! سامحني لأنني لم أسامحْ نفسي أبداً! ليتني فعلت! ليتني فعلت!

انتبه يا صغيري، ولا تنظر أبداً إلى ما ورائك. انظر إلى الأمام، حيث الشمس. لا تعشْ لحظتي هذه فهي لي، ولا يخصّك منها أيّ شيء. هي فعلي أنا، وهذا النفق هو نفقي.

انطلق كالمسعور باتجاه عربته التي ركنها في الطريق العام على بعد بضعة أمتار من بيتي. يعدو بأقصى سرعة ممكنة ويلهث لهاثاً مسعوراً، مردّداً كالمجنون كلماتٍ غير مفهومة، أظنه يلعن نفسه غاضباً من فعله. يفتح باب العربة، يندس فيها كالمجنون، ينطلق بسرعة خياليّة. يبتعد عن مسرح جريمته، وبلا هُدىً يصل إلى مركز التسوّق في المدينة.

الليل والسكون يغمران المكان. لا أحد في الطرقات سوى جنونه وروحي الهائمة وراءه. يتخذ من شارع فرعي مكاناً يوقف فيه عربته. يخلع قميصه المليء بدمي، يتناول من مقعد السيارة قميصاً كان قد أحضره من المغسلة. يرتديه ويضع قميصه الملوّث في كيس بلاستيكي أسود. يُخرج من جيبه هاتفه المحمول، وبيد مرتجفة برقم أبعد يضغط أزرار الهاتف، أحفظه غيباً، هو رقم "رأفت".

يأتي صوتُ رأفت كما أعرفه تماماً، بارداً جامداً وناعساً، ولكن فيه نبرة مستفزّة:

- ما الأمر؟ ما الذي جرى كي توقظني الآن؟.

(يجيب هو ولهاثه لا يزال يسيطر على صوته):

- لقد قتلته، صوّبت مسدسي إلى رأسه وأنهيت كل شيء!.

يرد رأفت بعد أن أخذ بعض الوقت ليستوعب النبأ:

- قتلتَ من؟!.

يردّ ولهاثه يتعالى: "هو، عامر، أرحتك منه!".

يبدو أن "رأفت" أغلق الهاتف في وجهه؛ لأن الهاتف عاود الرنين بعد لحظات، وامتدت يده المرتجفة ضاغطاً على زر الاستقبال. مرة أخرى يأتي صوت رأفت، ولكن هذه المرة متعجرفاً وخائفاً:

- أرحتني منه؟! أنا لم أطلب منك أن تقتله. أنت أيها الحقير تحمّل فعلتك وحدك. ليس لي أيّ شأن بك أو بفعلتك.
- ولكن......

تنتهي المكالمة. يعاود "صادر" ضغط الأرقام دون جدوى؛ إذ لا مجيب في الجانب الآخر.

يعاود تشغيل محرّك سيارته، ويطلق لها العنان كي تسير به إلى حيث يمكنه الاختباء من عواقب فعلته، التي أدرك الآن، بعد أن انقطع اتصاله برأفت، أنها لن تكون بالسهولة التي ظنّها. يتمتم بشتائم يطلقها على رأفت لاعناً اليوم الذي تعرف فيه إليه. يضغط بقدمه على دوّاسة البنزين، تدور عجلات السيارة بسرعة مذهلة، ويصدر عنها صوتٌ يشق صمت الليل. ذلك الليل الذي نفى وجودي وطوى أحلامه هو بأيام قادمة تحت الشمس.

قبل بضع ساعات من موتي، تناولت وأطفالي وجبة عشـــائي. كانت تلك وجبتي الأخيرة.

رافقتهم مساء ذلك اليوم إلى مدينة الملاهي. زوجتي كانت قـــد رافقت أمي وشقيقتي أمل إلى القدس لحضور حفل تخرّج ابن شقيقتي سلمى التي تقطن هناك. لم أتمكّن من الذهاب معهن، فقد مُنعت من الحصول على تصريح لدخول القدس. قضينا وقتـــاً ممتعـــاً معـــاً، ثم اصطحبتهم إلى مكتبـــي الذي كنت قد تأجرته؛ كي أبدأ مشـــروعاً للترجمة والأبحاث خاصًّا بـــي، وهناك تكوّم ثلاثتهم علـــى المقاعـــد يتناولون شطائر الشاورما التي ابتعتها لهم. نظرت إليّ ندى بعينيهـــا الواسعتين وكأنها تتأمّلني للمرة الأخيرة وسألتني: بابا! متى ســـتعلّمني كيف أستخدم الكمبيوتر؟

أجبت بشكل عفوي ودون تفكير: إنني لن أفعل ذلك؛ لأنـــني على وشك أن أموت.

لم تستوعب ندى إجابتي، ونظرت إليّ مرة أخرى وقالت: بابا! ما بالك؟ ألم تسمع سؤالي؟.

تداركت ما قلت بسرعة، وأجبتها: إنني سأفعل ذلك قريباً.

هل جاءت إجابتي لها من ذلك الإحساس الذي تملّكني طوال ذلك اليوم؛ إذ لم يغادرني إحساس النهاية، نهاية الأشياء، نهاية النـــهار، نهايـــة الليل، نهاية المكان، الزمان. إحساس عميق بالفراغ، الفـــراغ يغلّفـــني، أحاول التقاط اللحظة لكنها تهرب مني، حتى اللحظات الـــتي قضـــيتها

معهم، لم أشعر بعمقها وكأنها تحصل من الأعلى، وليس لها أي جذور في الأرض، وكأنني معهم، ولكن قدميّ لا تلامسان الأرض التي يدوسونها.

ربما كنت قد بدأت الصعود باتجاه النفق. ربما كنت في بداية الطريق إلى حيث أنا الآن.

حاولت الانعتاق من هذا الشعور، إلا أنّ كل محاولاتي في الابتعاد عن فكرة الرحيل لم تنجح؛ فقد غلب عليّ ذلك المزاج المختبئ في ركن من أركان نفسي، إنني في حالة رحيل. شعوري كان يترجّح ما بين رحيل عن همومي وعن عذاباتي الدهرية، ورحيل عن أطفالي وبيتي وكل من أحببت! ارتياح ممزوج بألم ورهبة من مجهول قادم، وفي الوقت نفسه ارتياح عميق يتسرّب إلى قلبي. حاولت أن أقنع نفسي بأن أوهمها كما العادة، بما ليس له مبرّر، لكن نفسي أبت إلا أن تُبقي ذلك الجزء المختبئ يطل بين الفينة والأخرى ليكدّر لحظتي. أنا راحل ولكن إلى أين؟ لا أدري. وكيف؟ لا أدري أيضاً. الآن أعلم تماماً أين خطّطت للرحيل، وأين جرى ذلك.

عدت بهم بعد ذلك إلى البيت، ولج ثلاثتهم الباب، وكان النعاس قد بدأ يغطّي جفونهم. أرغمتهم - مع ذلك - على الاستحمام، ومن ثم أودعتهم الفراش دون أن أخضع لمطالبهم بأن أروي لهم قصة ما قبل النوم؛ إذ إن أفكاري كانت تتركّز في لقائي "صادراً"، وبما أخبرني به من معلومات خطيرة، ربما تودي بمستقبل رأفت السياسي إلى داهية. كنت أفكّر كيف يمكنني أن أستغل كمّ المعلومات الهائل الذي حصلت عليه، وأن أنتقم من رأفت لتدخّله السافر في حياتي. وضعت كثيراً من السيناريوهات، ولكني لم أقرّر أيّا منها سيكون الأنسب.

كان "صادر" قد رافقني قبل بضعة أيام، اتصل بـــي ودعــــاني لرؤية شقته الجديدة. أعرفه منذ مدة، كان عامل بناء في المستوطنات الإسرائيلية التي أقيمت على أراضي القرى الفلسطينية المجاورة لهـــا. وبعد اتفاقيات أوسلو وإقامة السلطة الفلسطينية على أجزاء صــغيرة من الوطن، أصبح مقاول عمال، أي أنه يقوم بالاتفاق مع مقـــاولي البناء في المستوطنات، لتزويدهم بعمال مهرة لتشطيب المبـــاني الـــتي ينوون إقامتها في الموقع الاستيطاني، وهناك بدأت علاقته برأفـــت. إذ إن رأفت كان يبحث عمّن يزوده بعمال لمشروع بنـــاء يُخصّـــص لتأهيل الأسرى. وبواسطة بعض المعارف تعرف إلى "صادر". توثقت العلاقة بينهما، إلى درجة أن "صادراً" أصبح مرافقاً لرأفت، وغطـــاءً لأعماله التجارية التي ازدهرت بعد أن عُـــيِّن في منصـــب مهـــم في السلطة. أراد رأفت أن يغتنم فرصة الإغداق المالي الذي جادت بـــه أمريكا وأوروبا وحتى اليابان والصين لتسيير هذا الاتفاق. وككثيرين آثروا أن لا يزجّوا بأسمائهم مباشرة في شــــركات تنفّـــذ عطـــاءات لمشاريع استُحدثت تحت كثير من المسميات، استخدم رأفت "صادراً" لتنفيذ تلك المشاريع، ومن ثم اقتـــسام الأرباح. أما أنا فكنـــت أدري بكل هذا. لكني لم أكن ملمًّا بالتفاصيل حول حجم المبالغ المالية التي يتم اكتسابها، أو طرق الاحتيال التي يتم اعتمادها، تلك التي لا تـــثير أي شكوك لدى الممولين، الذين يشترطون النزاهة في صرف هـــذه الأموال. كنت أسترق السمع أحياناً إلى مكالمات يتلقاها "صادر" من

رأفت، حيث يتناقشان بأمور مالية تخص مشاريع بناء. وأحياناً، كانت تصل إلى مسامعي أرقامٌ خيالية حول ملايين الدولارات، وأُصاب بالصعقة، إلا أنني لم أكن أرغب بالاستفسار آنذاك؛ كي لا أثير شكوك "صادر" بنيّتي المبيّتة؛ لاستخدام هذه المعلومات ضد رأفت.

ما جمعني بـ "صادر" هو زجاجتي التي كان أيضاً من عشاقها، إذ لديه صعوبة في إيجاد مكان ملائم يمكنه من احتساء بعض الكؤوس دون أن ينكشف أمره؛ إذ إنه ينحدر من عائلة محافظة لا تسمح بمثل هذا الفعل. وكنت أنا من يوفّر له مكاناً آمناً، يمارس فيه رغباته باحتساء الشراب دونما حرج من أحد، وكنت أرغب كذلك برفيق زجاجة مثله، وهكذا ارتبطنا معاً بصداقة وطيدة، تجمعنا تلك الزجاجة وسويعات آخر الليل.

ولأن "صادراً" كان يعلم عن ضعفي أمام الزجاجة، فقد كان يتعمّد إغرائي بفرصة اقتسام واحدة يقوم بشرائها ويدعوني لاحتسائها معه بعيداً عن الأعين. وعندما تفعل الزجاجة فعلها معه، كان أحياناً يسرِّب بعض المعلومات التي أتلقّفها بخبث، وأبدي عدم اكتراثي بها.

قبل بضعة أيام، احتسيت معه بضعاً من كؤوس فعلت فينا تقاسيم جديدة، وأنهت كل ما يربطنا بخارج النفق. استرسل "صادر" برواية تفاصيل كثيرة حول رأفت، إذ إنه كان يستشري غضباً عليه بسبب طمعه وتحكُّمه. أسرَّ لي بخفايا أمور حول مشاريع رأفت التجارية، وذكر لي أسماء ومواقع لقطع أراضٍ وعمارات يمتلكها في الباطن، وسُجِّلت بأسماء أخرى. وذهب إلى أبعد من ذلك، إذ أطلعني على وثائق تثبت أن رأفت هو المالك الحقيقي لمشاريع "صادر"، وأن

الأموال التي كان يستخدمها في هذه المشاريع هي أموال عامة. أسـرّ لي "صادر" أيضاً بمعلومات خطيرة حول الطرائق التي يستخدمها هو ورأفتَ للاحتيال على المانحين، وتحويل جزء كبير من الأموال التي يهبوها لبناء مشاريع عامة إلى أموال خاصة، تُرصد بأسماء كثير من الأشخاص ضمن اتفاقياتٍ بمنح نسبةٍ منها لصالح هؤلاء الأشخاص. وأسرّ لي أيضاً ببعض هذه الأسماء، ما أصابني بالذهول؛ فقد كان بعضهم ممن أعرفهم وأثق بهم، كون كثير منهم كانوا دائمي الانتقاد لأداء السلطة. أراني صادر وثائق ضمت أسماءهم، وتجرأت وطلبت منه في لحظات غيابه عن الوعي أن أحتفظ بهذه الوثائق. وفي لحظات كنت قد بدأت فيها بالشعور بخدر في قدميّ إذ قمت بالاسترخاء، أسررت له برغبتي السرية بالانتقام من رأفت، كونه قد دمر حياتي وساهم بفقدان وظيفتي. كما أوهمته أنني سأغفر له هو، كل ما قام به ضدي شخصياً من أذى، ذلك أنني أعلم أنه كان ينفّذ أوامر رأفت. حاولت تحريضه لكي يشهد معي على المعلومات التي أفادني بها، إلا أنه فجأة استشاط غضباً، وأطبق على عنقي مهدِّداً بأن يطلق رصاصة على رأسي إنْ قمت بإفشاء أيٍّ من أسراره وأسرار رأفت. خرجت من شقته وقد أنهكني شرب الزجاجة، وكمّ المعلومات، وغضبُ "صادر" المخيف، وانتابني إحساس أن من سامرته وأسررت له بمكنونات تنغّص أحشائي، سيكون قاتلي ومطلق الرصاصة التي ستدخلني بداية النفق. أدرك الآن أيضاً لماذا كان مصرًّا على دعوتي، ولماذا أصرّ أن يغويني بزجاجة تهيئ لموت يسير، وذنب أقل.

غادرت شقة "صادر" وأنا أترنّح، ثم اتجهت إلى سيارتي، وأنا أشعر بأنفاسه تلاحقني وتسير ورائي، ألقيت نفسي بتثاقل على مقعد

السيارة، وأدرت المفتاح بصعوبة لأشغل المحرك هارباً من هول النظرة في عينيه.

في صباح هذا اليوم، بعد أن استيقظت على ألم يطرق رأسي، وشعور ثقيل بعبء يندس بين أضلعي، احتسيت فنجان قهوة ساعدني على أن ألملم أشلائي من ثقل سهرة أمس، ثم اتّجهت إلى بيت "أمل"، حيث كنت ألجأ إليها دائماً حين يزداد شعوري بالخوف والشفقة على نفسي، وفي طريقي إليها - في تمام الساعة الواحدة ظهراً - تلقيت مكالمة تخبرني أنه قد تعيّن لي موعدٌ لمقابلة عمل، مقابلة عمل كمراقب لحقوق في إحدى المؤسسات المرموقة، التي تعنى بحقوق الإنسان. تفاءلت قليلاً، وشعرت أن الله ربما تذكّرني، وأنه سيمنحني فرصة جديدة بعيداً عن صادر ورأفت، وحتى ذلك القابع بين ضلوعي متربصاً بي وبكل الفرص التي ساهم في إضاعتها. بعد تلك المكالمة حدّثت نفسي كثيراً أن عليها أن تلتزم هذه المرة، وتخضع وتخنع للأمر العادي، وأن تسير قُدُماً كي تصمد أمام انتكاسات ظهورها الفاقع المؤلم، الذي غالباً ما كان يوصلها إلى فقدان الأمن الوظيفي، فأعود أبحث عن وظيفة أخرى من جديد. هذه المرة قطعت على نفسي عهداً أن لا أسمح لها أن تخونني وأن تتركني كما باقي البشر، كما كل من يحيطون بي من أناسٍ عاديين. ما العيب في أن تكون عاديًّا، لتحملني قدماي نحو العادي.

وصلت إلى بيت "أمل". كانت دائماً ملاذي للإفشاء بسرّ نفسي. كنت، كلما طلّت تلك النفس المتعبة من مخبئها منذرةً بالخروج العبثي، تتّجه قدماي نحو أمل. نتحدّث معاً، وأسمح لنفسي بالتنفّس قليلاً خارج سجنها، وأريح جسدي المتعب لأحصل على

شحنة من الطاقة تعينني على المضي قليلاً في رحلتي. كانت أمل منشغلةً بمتابعة أمور أولادها. بقيت عندها بعض الوقت، وأخبرتها بما أعانيه من مخاوف وقلق؛ ذلك أنني قد نبشت بيت الأفعى، وأن الأفعى لم يرق لها ذلك وتهدد بالانتقام مني.

ردّت بقلق:

- ولماذا عدت من الولايات المتحدة الأمريكية؟ لماذا عدت إلى هنا حيث تعرِّض نفسك للخطر؟
- هنا لديّ فرص أفضل.

رددت عليها غير مقتنع بما قلت. (عن أيّ فرصة كنت أتحدّث؟ هل فرصتي هنا في التخلّص من ذلك النذل الذي يسيطر على داخلي منذ عقدين أو أكثر؟ أم أن فرصتي في السير باتجاه العادي هي الأفضل؟ لم أكن وقتها مدركاً أن فرصتي الحقيقية ستكون هذه الليلة باللقاء الأبدي مع نفسي. ها أنا ذا الآن ألتقيها أخيراً. هل كانت نفسي قد تهيأت لهذا اللقاء ولهذا قلت ما قلت لـ "أمل" ذلك اليوم).

كانت أمل تفهم إحساسي جيداً، لكنها كانت كثيرا ما تلومني، لأنني أوقعت نفسي في بئر سحيقة، و لم أسمح لها بأيِّ متنفس، كثيراً ما حاولت إقناعي بفلسفتها في الحياة قائلة: من الصعب يا عزيزي أن تعيش متواصلاً مع داخلك. إن من يصل إلى أعماقه ويعيشها هو من يصل إلى الإبداع. هؤلاء الذين لامسوا دواخلهم هم من خلدوا فينا. أما نحن باقي البشر، فنعيش في محاولات دائمة لملامسة بعض من أجزاء صغيرة تطفو أحياناً على السطح. لذلك ترانا جميعاً مسيَّرين ولسنا مخيّرين. خياراتنا يا عزيزي ليست سوى إملاءات، تعوّدنا

تلقّيها بعد أن رُوّضت أنفسنا الحقيقية وقبلت بوضعها المهين في أعماق البئر.

لم أكن عادة أصغي السمع إليها، ولكني الآن أدرك معنى كل ما قالته. أدرك أن من يلتقي نفسه هو من يحلّق فوق الجميع منتظراً دخوله بداية النفق.

غادرتُ أمل يومها وأنا موقن أن يومي لن يكون عاديًّا. كان يخالجني شعور من الكآبة مختلط بإحساس من السعادة ينبع من منطقة في قلبي لم أتعوّد الإحساس بها. أظن أنني كنت في أعماقي أدرك أن لقائي بنفسي سيكون قريباً.

قبل أن ألتقي بموتي

كان وضعي النفسي، ولفترة طويلة، قد أصبح مريعاً، وأصبحت تائهاً لا أمتلك بوصلة تقودني إلى ما يمكن أن يريحني من عبء زجاجة أحملها في يدي، وقلب يلهث وراء ذكريات تطفح من عنقها. كل شيء كان رمادياً. لم أكن قادراً على رؤية أي ضوء في نهاية النفق. فقط، تملكني لفترة طويلة شعورٌ انتقاميٌ من كل من حولي: من أبي وأمي وزوجتي وأبنائي. والأهم من ذلك أنني أصبحت دائم الافتعال للمشاكل. لا ألبث الخروج من واحدة حتى تتلبّسني الرغبة بافتعال أخرى.

تدحرجت كرة الثلج وكبرت، وتفاقمت المشاكل إلى أن وصلت بي إلى وضع يائس. بدأت الأمور تتهاوى عندما طُردتُ من عملي الذي كنت أزاوله لفترة ليست بقليلة، وكان يدرّ علي دخلاً ماديًّا وفيراً، إذ إنني كنت أتبوّأ منصب مستشار لإحدى الشخصيات المهمة، وكان عملي معه في الأساس يدور حول التنسيق للقاءات تجمع بعضاً من رجال المجتمع الفلسطيني ونسائه مع غيرهم من رجال المجتمع الإسرائيلي ونسائه. وقد كانت هذه اللقاءات تُعقد بهدف كسر الحاجز النفسي الذي كثُر الحديث عنه بعد توقيع اتفاقيات أوسلو، وإقامة هذا الكيان الذي سُمّي السلطة الوطنية الفلسطينية. كنت في بدايات عملي هذا أوهم نفسي أنني سأتمكّن من قتل الوحش الذي لا يزال يتربص

بـــي، ويلح عليّ في كل دقيقة بأن أثأر لرجولتي التي انتُهِكت قبـــل أن أدركها. وظننت أنني، ربما من خلال عملي هذا، ســأنجح باكتشــاف جانب آخر لذلك القميء، وأتصالح معه، حتى يكف عن إيذائي وأنتهي من هروبـــي الدائم منه إلى زجاجتي. لكن ظني خاب تماماً؛ إذ كلمـــا ازدادت معرفتي بهذا الوحش ازداد حقدي عليه: ذلك المتربص بـــــي، القابع بين ضلوعي، الكاتم على أنفاسي، المتربّع علـــى ذاكـــرتي الـــتي عجزت أن تدفعه عن أبوابها الأمامية. ورغم محاولاتي في أن أنظر بعـــين أخرى، وأن أتفحّص النظر مليًّا في قسماتهم، فأشتم رائحة العـــادي في ثيابهم، وأتحسّس ملمساً عاديًّا عند تصافحنا بالأيدي، إلا أنني لم أفلح في إيجاد أي أثر إنساني يمحو صورة الوحش القابع في داخلي.

بدأت هذه اللقاءات بالانتشار على مستوى الوطن، وأصبحت تستقطب تمويلاً مَهولاً مِمّا يُسمّى دولاً مانحة. فقد بات وهمُ اقتراب الحل النهائي يسود معظم طبقات المجتمع؛ فاستقطبت هذه اللقـــاءات سجناء سابقين وأكاديميين ومثقفين وطلبة مدارس وجامعات، وحتى ربات البيوت. كانت هذه اللقاءات تُعقد بالعادة خـــارج الـــوطن، ويلتقي الطرفان على أرض محايدة. أتاحت لي هـــذه اللقـــاءات أن أجوب العالم شرقاً وغرباً. زرت معظم عواصم أوروبا، وبعض الدول الأسكندنافية والعربية، والأهم من ذلك، أنني كنت أحظى باستقبال في هذه الدول يليق برؤساء دول.

أمّا وقد كنت مسؤولاً عن التحضير لهـــذه اللقـــاءات، فقـــد اضطررت إلى أن أجري اتصالات مع شخصـــيات مثـــل: عمـــرام ويوسي ومناحم، ولكني كلما رفعت الهاتف طالباً أحدهم من أجـــل التنسيق للقاء، أشعر بغصّة في حلقي وخدرٍ في أطرافي، وأبتلع ريقـــي

مراراً كي أتجرّع علقم اللكنة التي يردّون بها، محاولاً الابتعاد بذاكرتي عمّا يؤلمني عند سماعها.

أذكر أنني في أحد اللقاءات التي عُقِدت في مقر المؤسسة، كانت الطاولة المستديرة تفيض بمن حولها وما عليها من ضيافة؛ إذ إن السخاء العربي كان سمة مميزة لطاولات الحوار هذه، فقد امتلأت بما لذ وطاب من مشروبات ومأكولات خفيفة. وعندما بدأ الاجتماع، انهمك الجميع بتذوُّق ما تصله أيديهم. أما أنا، فقد بدأت بفقدان اهتمامي بما يتداولون من أحاديث منذ انقضاء الدقائق الأولى للقاء، وركّزت اهتمامي على ما يمكن أن تصله يداي من مأكولات، فابتدأت ولم أتوقّف عن المضغ، إلى درجة أنني شعرت بالإحراج من نفسي، ومع ذلك تابعت الأمر؛ إذ إن الطعام كان يلهيني عن الشعور المُلِحّ برشفة من زجاجتي، لا سيّما عندما أصبح الجميع يتحدّثون اللّكنة القميئة والرديئة نفسها، تلك التي توحي بعفن آدمي، يخرج مع كلمات تتبعثر في المكان دون صدى ودونما روح. عندها راودتني رغبة قوية في أن أقف أمامهم جميعاً معلناً كراهيتي لأصواتهم ولكنتهم، وأن أطلب منهم مغادرة المكان الآن قبل أن أقلب الطاولة في وجوههم، ولكنني لم أفعل. بقيت أراقب ما يجري، وعيناي تحدّقان إلى الفراغ بحقد وكراهية لكل ما يحدث حولي. فجأةً، تحوّلت مشاعري الكارهة للكنتهم ثقلاً يضغط على أمعائي، وربما ساهم في ذلك كميات الطعام التي أتخمتها بها، وتحوّلت اضطراباتٍ معويةً بدأت تعلن عن نفسها بقوة أمام الجميع.

لم أتوانَ عن اتخاذ ذلك ذريعةً للمغادرة، فأستأذن وأهرول باتجاه المرحاض، وهناك، أفرغ كل ما يحشو أمعائي من مشاعر قرف لازمتني طوال اللقاء.

أراني الآن أرتب حقيبتي مغادراً إلى جنيف، حيث ستعقد أول الاجتماعات لمبادرة سُمّيت باسم المدينة، حيث موّلت الحكومة السويسرية هذه المبادرة، وقد ادّعى منظموها أنها تأتي من طرفي النزاع؛ لإنتاج سيناريو حلّ مقترح، واختبار ردود الفعل تجاهها. كنت من خلال كل تلك الرحلات التي كثرت منذ أن شغلت هذا المنصب قد جُلت معظم دول العالم وتعرفت إلى شخصيات مهمة فيه. فالتقيت وزراء، ورؤساء، وأصحاب رؤوس أموال، وأعضاء برلمانات. كنا في كل مرة نلتقي نتحدث لساعات، وفي معظم الأحيان يختلف ما يصرّحون به في الاجتماعات الرسمية عمّا يسرّون به في لقاءاتهم الخاصة. أذكر يوماً – أثناء حديث جانبي مع مستشار لوزير في إحدى الدول الغربية – أنه تجرّأ بأن أسرّ إلي بأن ما نفعله لن يجدي نفعاً، وأن طريقنا الوحيد لحل مشاكلنا هو القوة. استغربت ما قاله، وعزوت ذلك إلى كونه أفرغ نصف زجاجة في فمه. هي تلك الزجاجة العجيبة، وكأنها إكسير الشجاعة، حقًّا تصنع المعجزات.

تكرر مشهد اضطراباتي المعوية في جنيف. هناك فقدت السيطرة تماماً على فمي وأمعائي وبالتالي لساني، كنت أكثر من الشرب ليلاً، وأستيقظ وقد حطّمني الصداع صباحاً، ثم أجلس في دوائر الحوار لأستمع إلى خبث القول وهذيان المرحلة، وأسرح في خيالي، محاولاً الخروج عن النص، فأراني دائماً أحمل حجراً أقذفه بقوة، ليستقر في وسط الطاولة المستديرة، فينفجر محدثاً دويًّا هائلاً يصمت لأجله الجميع

إلى الأبد. أرى رؤوس كل من يجلسون حول الطاولة وقد تعلّقت بحبال كتلك التي تُستخدم في تحريك الدُّمى، وتراني أحرّكها يدي في دوائر مغلقة لترتطم بعضها ببعض، محدثةً انفجارات متالية، وأبدأ فجأة بالقهقهة بصوت عالٍ، فينظر إليّ الجميع لأراهم يختزلون بوجه واحداً لا يزال يقبع داخلي، وفي أعماقي، فأنتفض من مقعدي مهرولاً إلى دورة المياه حيث أحاول الاستراحة من ثقل ما في معدتي. تكرّر هذا الهذيان إلى أن لاحظه الجميع، فكلما ابتدؤوا بالحديث ابتدأت أمعائي بالإعلان الفاقع عن الاحتجاج، ومن ثم أضطر للاستئذان، ما حدا بالمسؤول إلى أن يقصيني عن الاجتماعات. ولكن الأمور لم تنتهِ عند هذا الحد؛ فقد أصبحت، وبلا وعي، ألجأ إلى موضوع الإعلان المعوي للتعبير عن قرفي الداخلي؛ ما أدّى إلى إقصائي عن مهمة التنسيق لهذه المبادرة، وأوكلت إليّ بعض المهام المكتبية البسيطة، التي كانت تتركني بفيضٍ من الفراغ، يسمح لي بالاستئناس بصديقتي الزجاجة، التي أصبحت رفيقتي الدائمة، و لم يعد لي غيرها رفيق.

عمدت في هذه الفترة إلى ترتيب أوراقي الانتقامية، فأصبحت أجلس يوميًّا وأمامي زجاجتي. وبعد إفراغها في جوفي تبدو الأشياء أكثر وضوحاً؛ فأستعيد كل المواقف التي مررت بها، وأختار أحد الذين أراهم أكثر ذنباً في ما يحصل لي، لأجند كل إمكاناتي التي كانت كثيرة التشبيك والتعقيد بين الأشياء، ثم أستهدفه بشدّة.

أرى نفسي الآن قد قرّرت بعد فترة من التفكير المعمّق أن توقع الأذى بأحدهم، فألجأ إلى كل ما لديّ من وثائق ومستندات حول ضحيتي، أنبش أوراقي وحقائبي، وأخرج جميع محتوياتها، ثم أبدأ بإعداد مخطّطي الجهنمي ومن بعدها أقوم بتنفيذه.

أولى المحاولات

حملت جسدي المنهك وألقيت بثقله على الأريكة في غرفة جلوسي، وحملت الهاتف وشرعت بتنفيذ أول مخططاتي. كان "رأفت" أول أهدافي، أحفظ رقمه غيباً، أدير قرص الهاتف وأبتدئ.

لا بدّ أن رأفت ينام عميقاً الآن، عليّ أن أوقظه من نومه وأقطع عليه حبل تفاعله الليلي. هل يمكن أن يستغرق عميقاً في النوم بعد كل ما فعله، أم أن ريحاً تهب من ثنايا ضمير مهمل ربما تقلقل نومه؟ يمكنني أن أفحص ذلك الآن.

رن الهاتف في بيته طويلاً، لكن دون أن يوقظ شعرة من رموشه، أو يحرك فيه ساكناً. تركت له رسالة على هاتفه، أخبرته فيها أنني سأبذل قصارى جهدي لفضح أفعاله القبيحة، وأنني سأحرص على أن يعلم الجميع أن معظم ما استحقه المعدمون المساكين من مال مُنح لإسكانهم، تبخر بين يديه ليتحوّل ممتلكاتٍ خاصةً، وشركاتٍ مسجلةً بأسماء وهمية. ابتسمت بيني وبين نفسي، وكافأتها بكأس ثم أخرى، ثم استرخت عضلاتي بعد ذلك، وغرقتُ في نوم عميق أوقظني منه رنين هاتفي الشخصي. كان صوته يصل أذني بارداً كالثلج، وهو يتهدّدني ويتوعّدني شرًّا إنْ أنا فتحت فمي بكلمة واحدة تفضح أفعاله. كانت الكؤوس التي شربتها ما زالت ترقص داخل رأسي، فأطلقت ضحكاتٍ مجنونةً في وجهه.

يبدو أن ضحكاتي أيقظت فيه نار جهنّم. كنت قد استرخيت قليلاً، ولكن صوت أطفالي قادمين وأمهم من بيت جدهم، أيقظني من سرحاتي الخيالية، التي كانت تنتهي بي في العادة إلى هناك، إلى البقعة السوداء التي تظلّل جزءاً كبيراً من نفسي. أحاول باستمرار أن أخترقها، أن أرى ما تخبئه وراءها من نقاء غاب منذ سنوات ولا أستطيع. فالبقعة الداكنة تظلّلني، تعمي بصري وبصيرتي.

اندفع الصغير إلى حضني فرِحاً بوجودي في البيت. التفّت يداي حول خصره النحيل وضممته إلى صدري، كم أشتاق الآن لذلك الوجه البريء الجميل! ليت عمري كلّه تجمّد عند هذه اللحظة؛ ليتني أستطيع أن أضمّه من جديد وأغرقه قبلاتٍ تملأ وجهه الصغير ولو مرة واحدة فقط. انتفض الصغير فزعاً من صوت الطرقات المتواصلة بشدة على الباب الخارجي. أطلّت زوجتي من الباب، ولحقها الأطفال، ثم في لحظة اندفع كلٌ من رأفت ومرافقه صادر بغضب تجاهي، ثم بكل ما أوتي صادر من قوة كان قد اختزلها في عضلات يديه بدأ بضربي، وفي كل مكان من جسدي المنهك بفعل الزجاجة التي شربتها منذ سويعات. هي نفسها تلك النظرات التي طبعت الفصل الأخير من ذاكرتي، هي نفسها التي كانت تمعن في جسدي انتهاكاً قاسياً تلك اللحظة.

صراخ زوجتي، وتلك النظرات المؤلمة من أطفالي كفّتا فعلهم عني، ثم تلا "صادر" على مسامعي شروطه حتى لا يتعرّض لي بعد ذلك، ثم انسحب مع رأفت خارجين من البيت بعد أن أوصدا الباب بعنف.

حكايتي مع رأفت تمتد إلى نسيج من ذاكرتي ليس بقريب، وفي مخزون هذه الذاكرة ما يلحّ عليّ الآن بالخروج من عنق الزجاجة. لكن

معرفتي به كانت أثناء عملي في مؤسسة التطبيع، وكان هو واحداً من الشخصيات المهمة التي تحضر اللقاءات المشتركة. رأفت من الذين ساهموا بإنجاح تلك اللقاءات، إذ إنه، رغم كونه سجيناً سابقاً، فقد كان مرناً وسهلاً في التجاوب مع ضغوط الطرف الآخر. لا أستطيع التفسير، حتى من موقعي هذا، كيف يمكن للضحية أن تتماهى مع سجانها. لا بد أنها نفسية المقهور الذليل، الذي يفرح أحياناً لابتسامة من جلاده، ويظل في اللاوعي ينظر بإكبار إلى طغيانه.

كنت في داخلي أزدري ارتماءه في أحضان جلاديه، وكلما رأيته يحدّث أحدهم بنعومة صوته وحركاته المهذبة بذُلّ، أستنفر وأبدأ بالغليان.

وتعاودني صور من ذاكرة لطعم من ذلٍّ تذوّقته في فصل التحوّل فتبدأ يدي بالتكوّر، وقبضتي تتأهّب للكمة على وجهه، تعيد له بعضاً من كبرياء. أتراجع أمام فراغ يغلّف نظراته، وأدرك أن لا فائدة، فقد مات فيها شيء ما اسمه كرامة.

علاقتي برأفت كثيراً ما كان يشوبها التوتر، إذ إنه بطبعه الهادئ، كان قادراً أن يوهم من حوله بدماثة أخلاقه وحسن تعامله، إلا أنني كنت قادراً - بفعل تلك النفس الداخلية اللعينة - على كشفه وكشف ما يخبّئه ذلك الهدوء المفتعل، ولهذا لم يشعر أبداً بارتياح حقيقي في تعامله معي. أما هو فقد عمل جاهداً من أجل تجنّب النظر في وجهي، وكأنه يبعد الشكوك التي تنتابه بأنني قادر على إفشاء سرّه أمام نفسه. ورغم أنني حاولت باستمرار أن أمنع لساني من إفشاء كنز المعلومات الذي أمتلكه عن أعماله التجارية، فإنني لم أستطِعْ أن أكبت رغبتي برؤيته يشتاط غضباً، ويتحوّل من شخص ذليل مهذب

أمام جلاديه، شيطاناً صغيراً غاضباً، يمكنه أن يدمّر مَن حوله في ثوانٍ معدودة. كانت صورته المتملقة لمناحيم وشاؤول وشوشانا وغيرهم، ورغبته الحثيثة في إثبات حسن نواياه، تشعرني بالاختناق، وتعيدني إلى تلمّس أمعائي من جديد لأرتطم بذلك المتربّص بـــي، القـــابع في أعماقي. فأشتاط غضباً، وأطلق الضوء الأخضر للساني بأن يقول ما يخطر في بالي من معلوماتٍ سرية وأخرى يعرفها الجميـــع؛ إلا أنـــني أنمّقها لتبدو خطيرة، وذات دلالات كبيرة. وقد استغلّ بعض الزملاء، وبعض الذين يُدعَون للمشاركة في نشاطات المركز جزءاً من هـــذه المعلومات في ابتزازه عند الحاجة لذلك، وهو ما استثار حفيظته، فبدأ يظهر بعضاً من حقيقة نفسه الشريرة ويتوعّـــدني بمصـــير ســـيئ إن استمررت بفعلتي. حاولت مراراً وتكراراً أن أمنع نفسي اللعينة مـــن تعقّبه والاستمتاع برؤية وجهه يشتاط غضباً، ولكني كنت أفشل في معظم الأحيان، وكلما أفرغت بعضاً من محتويات صديقتي الزجاجـــة في جوفي، اتضحت لديّ الرؤية وأفشيت مزيداً من أسراره، فيستشيط بدوره غضباً ويبدأ بالتهديد مرة أخرى.

أصبح الموضوع بيني وبين رأفت خارج نطاق السيطرة، وبـــدا واضحاً لكل الدوائر المهنية والاجتماعية التي تعمل في هذا المجـــال أن التوتر بيننا كان على وشك الانفجار. والآن، عمد رأفت إلى تحريض المسؤولين في العمل ضدّي، ما أدى إلى إنهاء عقدي، وطـــردي مـــن عملي. فأصبح همي الأكبر بعد ذلك الانتقام من رأفت وإيذاءه.

وثّقت علاقتي بصادر؛ بهدف الانقضاض على رأفت من الداخل، وعمدت إلى إغرائه بشكلٍ دائم، من خلال جلسة تجمعنا فيها زجاجـــة وأسرار ألتقطها بذكائي المعهود، وأستخدمها في مناكفته ليلاً ونهاراً.

في ذلك اليوم، الذي أنهكاني فيه ضرباً وأوسعاني شتائم، قررّت الذّهاب إلى مقر الشرطة لأقدّم شكوى اعتداء شخصي بحق الاثنين. في مركز الشرطة، لم تكن الأمور كما تخيّلتها. إذ إن هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها مقرًّا للشرطة، ولم يكن هذا المقر سوى غرفة في إحدى العمارات السكنية في مركز المدينة. وصلت لأجد بعضاً من أفراد الشرطة يجوبون الغرفة دون فعل شيء يُذكر. وبعد أن استفسرت منهم عن مكان الشكاوي، قادني أحدهم إلى غرفة داخلية باهتة الألوان، فيها ملفات ملقاة على مكتب مهترئ يجلس خلفه ضابط يجري حديثاً على الهاتف. بدا أن الحديث يدور حول قطعة أرض للبيع والشراء.

أجلسُ على مقعد خشبي صغير بعد أن يشير إليّ بيده بأن أستريح؛ أنتظر وأنا لا أقوى على ذلك، أتململ وأحاول إحداث بعض الأصوات لافتاً انتباهه إلى وجودي، لكنه لا يأبه، إذ يكمل حديثه مسهباً حول أسعار الأراضي في مواقع مختلفة. تطول مكالمته وأنا أجلس منتظراً سعادته إنهاءها. بعد ما يقارب نصف ساعة، يضع سماعة الهاتف ويلتفت إليّ مستفسراً:

- شو المشكلة؟
- أودّ تقديم شكوى بإيذاء متعمّد.
- ومن قام بإيذائك؟

وفي اللحظة التي ذكرت فيها اسم رأفت، اختلفت تعابير وجهه ونظر تجاهي باهتمام بالغ مستفسراً:

- متى حصل ذلك؟
- الليلة الفائتة.
- هذا مستحيل.
- لماذا؟

صمت للحظة ثم استعاد تعابيره الاعتيادية مجدداً وطلب مني البدء بتقديم شكواي بعد أن أخذ بياناتي الشخصية.

لو كنت أعلم يومها أن الشكوى التي قدّمتها ستسهم في إلغاء صفقة الأرض التي كان يتفاوض هذا الضابط عليها عبر الهاتف لما قدّمتها أصلاً. فقد اضطر رأفت إلى قبولها بالسعر المعروض عليه مقابل إدراج الشكوى التي قدمتها طيَّ النسيان. راجعت بخصوص الشكوى مراتٍ كثيرة، ولكن دونما إجابات واضحة أو شافية. الآن أدرك من موقعي هذا أن شكواي لم تُطبع البتّة.

* * *

بعد هذه الحادثة، وبعد أن اهترأت قدماي وأنا أراجع بشأن الشكوى التي قدمتها دون فائدة، ازداد وضعي سوءاً وأصبحت علاقتي بزجاجتي وثيقة جداً. عندها تبلورت لدى جميع من حولي قناعة بضرورة ذهابي للعلاج كي أشفى من تلك الزجاجة، التي يعزو لأجلها الجميع سبب مشاكلي كلها، بسبب حبي لها. واضطر والدي الذي كثيراً ما حاول تجاهل أمرها أن يرضخ للأمر، متيقّناً من أنني أستطيع إنهاء مشاكلي إن أنا أردت ذلك. لم يكن أبي أو أيّ من أفراد عائلتي يدرك أن زجاجتي هي دوائي الذي أخمد به النار المشتعلة في داخلي، وأسكت بها ذلك الوحش المتربّص بي. استسلمت لرغبتهم ووافقت على مضض، ولكني اشترطت أن يكون ذلك خارج البلاد، واعتبرت هذا الفعل فسحة أستعيد بعدها بعضاً من طاقتي وربما حلاً مؤقتاً لأزمتي.

ثمّ بدأت محاولات حثيثة لإيجاد المكان الأكثر تناسباً مع الإمكانات المادية لوالدي، الذي لا بدّ قد تحمّل العبء المالي بسبب فشلي في توفيره طوال هذه السنين. رفضت في البداية كل العروض التي قُدِّمت لي عن مصحات في الجوار، لا سيّما تلك التي يديرها الشياطين. كنت لا أصدق أنني يمكن أن أشفى من حب زجاجتي في مكان تنتشر فيه رائحتهم وتملأ أجواءه لكنتهم القميئة؛ عندها تدخّل صديقي عيسى، الذي أتّصل به شاكياً، كلّما ضاقت الدّنيا في وجهي، كان عندها قد شعر بعمق أزمتي مع زجاجتي، فتدخّل

ودعاني للقدوم عنده في أمريكا حيث عمل لإيجاد مركز علاجي يناسب حالتي المستعصية. حزمت حقائبي في يوم وليلة، ودّعت أمي وأبقيت عندها بعض الأوراق.

سافرت إلى الولايات المتّحدة وطعم لوليمة منسفٍ باقٍ في فمي طوال رحلتي إلى هناك، كما أنّني غادرتُ دون أن أودِّع أحداً حتى "أمل"، إذ كنت لا أرغب في رؤية أحد، حتى أطفالي الثلاثة وزوجتي. فضّلتُ المغادرة دون أن أعتصر ألماً لفراق من أُحب، بل ذهبت وكأنني سأعود بعد ساعات. ولكي لا أتململ من الذهاب، أودعت كل تفاصيل الرحلة صديقي "عيسى" الذي تكفّل بكل ترتيباتها.

* * *

في لوس أنجلوس

هذه هي المرة الثانية التي أطير بها هارباً من نفسي الملعونة، في محاولة لإيجاد بعضٍ منها في مكان بعيدٍ، بعيد. كانت رحلتيَ الأولى قبل ما يقارب العشرين عاماً، عندما غادرت وأنا لا أزال يافعاً، وكنت آنذاك محطّماً مليئاً بالألم، ولكني لم أكن فاقداً الأملَ في الانتهاءِ من ذلك المتربِّص بي، وأن أعود مكلّلاً بالنصر. وكنت طوال رحلتيَ الأولى أنظر إلى الوراء لأرى نفسي وقد انسحبت إلى الخلف، حيث تقبع درجات البيت لأقفزها من جديد، مبتهجاً بفرحة لقاء مقتنص مع ابتسامةٍ على وجه أبي ولمعانٍ في عينيّ أمي!

ما زالت الرؤية تقضّ مضجعي، وما زلت حتى هذه اللحظة أرغب في أن تصبح حقيقة، وأن تكون مغادرتي هذه المرة بداية لتحقيق حلم ورؤيا طالما راوداني.

كنتُ معلّقاً في السماء، ممتطياً مقعد الطائرة الصغير، غارقاً كليًّا في أفكاري. كنتُ وكأسيَ التي لم أتوانَ عن ملئها كلما شارفت على الانتهاء، كلّ ذلك في عشرِ ساعاتٍ استغرقتها الرحلة للوصول إلى لوس أنجلوس. بعدَ ذلك هبطت الطائرة معلنةً انتهاءَ رحلتها وبداية رحلتي أنا. انتابني شعور غريب، وكأنني عدت صغيراً، صغيراً إلى درجة أنني قفزت من مقعدي في الطائرة، ومرة أخرى - تماما كما المرّة الأولى - تحدّثت مع المضيفة بلكنة أمريكية حتّى لا تكتشفني،

شاكراً لها حسن الضيافة على متن الطائرة، ثم خرجت مسرعاً تجاه الممر المؤدّي إلى مكتب الجوازات. استوقفني الموظّف هناك، متسائلاً عن سبب قدومي إلى الولايات المتحدة. لم أعرف ماذا أقول، تلعثمت قليلاً، ثم خطر في ذهني مصطلح مضحك:

- رحلة استجمام تطهيرية.

نظر إلي باستغراب مستفسراً المعنى، لكني تداركت الأمرَ قائلاً:

- من أجل زيارة بعض الأصدقاء القدامى.
- أتمنى لك إقامة سعيدة، سيدي.
- إقامة سعيدة سيدي، إقامة سعيدة سيدي، (ظلت الكلمات تتردّد في رأسي طوال تلك الإقامة التي، بالطبع، لم تكن سعيدة كما تمنّى لي ذلك الموظف).

فهناك بالتحديد في مدينة "لوس أنجلوس"، كان أبي قد سدّد ثمن إقامتي في إحدى المصحات أو دور النقاهة، متأمّلاً في أن يفلح المعالجون بإقناعي في الاستغناء عن زجاجتي، وأن أستعيد بعضاً من روحي التي فقدتها في صراعي مع المتوحّش. على الأغلب كان والدي يرغب في استراحة محارب، فأرسلني أملاً في توفير فترة راحة تخلو من قلق دائم حول ما سأورطّه به في أي لحظة.

قضيت أولَ أيام رحلتي في بيت صديقي "عيسى"، الذي كنت قد تعرّفت إليه أيام دراستي في "سان فرانسيسكو"، وهو يعمل الآن في إحدى شركات التأمين، كما أنه استقر مثل كثير من أفراد عائلته في الولايات المتحدة.

ينحدر عيسى، أصلاً، من مدينة رام الله، تلك التي هاجر كثير من أبنائها إلى الولايات المتحدة الأمريكية؛ بسبب خوفهم من نتائج

الحرب في عام 1967، وشعورهم الدائم باعتبارهم أقلية مسيحية بفقدان الأمان بعد استيلاء الإسرائيليين على الأرض. كان عيسى يعاني انفصاماً في رؤيته لنفسه؛ فمن ناحية كان يعشق رام الله، إلا أنه لم يستطع البقاء على أرضها أكثر من أيام معدودة يقضيها في زيارة بعض الأقرباء الذين اختاروا أو أُجبروا على البقاء فيها، لأنهم لم يحصلوا على الجنسية الأمريكية بعد. ومن ناحية أخرى، تراه لا ينفك يمدح ديمقراطية الولايات المتحدة وروعة المواطنة فيها. ولهذا فهو دائم التردّد في قراراته، فتارةً تراه يبتاع عقاراً يحوّله مطعماً وينوي الاستقرار نهائيًّا في لوس أنجلوس، وتارةً يعود إلى البلاد باحثاً عن شقق للشراء، إذ ينوي الاستقرار والبحث عن فتاة من هناك لكي يتزوجها.

كثيراً ما تحدثت وعيسى محاولين إيجاد العقدة التي أوصلتنا إلى انفصاماتنا، التي ندركها جيداً ولا نعرف كيف نقهرها. كان عيسى دائم الحديث عن حلم راوده وهو صغير في أن يغادر رام الله، ثم يعود إليها بعد حين، وقد نفض عنه غبار الفقر الذي التحف به في طفولته، وأوجع عظامه التي كانت تخر فقراً في أيام الشتاء القارسة في رام الله.

- لن أعود إلى رام الله شتاء، كلما تخطر في رأسي تلك الفكرة، يبدأ جسدي بالتناغم اللاإرادي مع انقباضات برد غارق في القدم. أذكر يا "عامر" أنني كنت أتحجّر برداً، إلى درجة أن عقلي كان يأخذني في رحلة وهمية إلى سرير وهمي لم أمتلكه، ويضعني بعناية على هذا السرير ليدفئ عظامي بلحاف من صوف، فتسري الحرارة في قدميّ من جديد؛ ومن ثم أفيق لأجد أنّهما ما زالتا تحملان جسدي

دونما حراك، وأشعر أنني لو حركتهما لسقط جسدي عني، كورقة اصفرّت من كثرة البرد. آه يا "عامر"، شتاء رام الله قاسٍ جدًّا ولئيم كذلك.

كنتُ أخبره أيضاً عن ليلي الطفولي في رام الله، وكيف أن خوفيَ الدائم ليلاً من صوت البرق والرعد كان يحرم جفنيّ النوم، وكيف أنني كنت أنهض من سريري الصغير وأسحبه باتجاه سرير شقيقتي "أمل". ثم أمد يدي باتجاهها كي أحظى ببعض من الحب الذي يُطمئن قلبي قليلاً لأغفوَ في الحال.

- لن أعود إلى رام الله شتاءً، هذه حقيقة أنا أعرفها جيداً.

(يردّد عيسى ذلك دون أن يركز على ما أقوله، ويسرح بخياله إلى أماكن أستطيع أن أتكهّن بها، ولكن لا أدري ما يجول في خاطره).

أما أنا فلا بد أن أعود، سأعود بعد أن أستريح استراحة محارب، سأعود لأن لي هناك فرصاً أفضل.

* * *

في دار النقاهة

خطواتي الأولى التي مشيتها في ذلك الممر الطويل، باتجاه الغرفة التي ستأويني لبضعة أسابيع كانت خائفة، متـــرددة، وعـــاجزة. في داخلي كان شعور عميق بالاغتراب! أين أنا؟ ولماذا أنا هنا؟ من هـــم هؤلاء الذين يطلون بوجوههم من مخابئهم، وكأنهم يأتون من فـــيلم هوليوودي كنت قد حضرته في الماضي؟

في غرفة الاستقبال، لُوّنت الجدران بألوان زاهيـــة، وامـــتلأت برسومات مستوحاة من الطبيعة. كثير من الأشجار المثمرة، وقمـــم جبال تكتسي بالثلج بمنظر يوحي بسوريالية كوكب احتـــلّ موقعـــاً متوسّطاً في الكون، فأنبت كل هذا الجمال. تأملت الصـــور علـــى الحائط وأنا في انتظار إشارة من السيدة التي تجلـــس علـــى مكتـــب الاستقبال، مبتسمة كما كل الأمريكيين في أماكن العمل الرسميـــة. كثيراً ما كنت أتساءل إن كانت هذه ابتسامات حقيقية أم أنها جـــزء من بروتوكول العمل يتم تدريبهم عليها، فتراهم يرتدون ابتـــساماتهم تماماً كما يرتدون الزي الرسمي للعمل. على كلّ حـــال، أن تحظـــى بابتسامة، حتى لو لم تكن من القلب، فذلك على الأقل أفضل من أن تُقابَل بفظاظة، كما هي الحال في كل المؤســـات الرسمية في بلادنـــا. جال كل ذلك في نفسي بينما كنت أنظر إليها مبتسماً، ثم أشـــارت إليّ أن أتبعها قائلة:

- تفضّل معي سيدي لأريك مكان إقامتك.

لم أنبس بنت شفة، وتبعتها كما الطفل الصغير يلحق بأمه، متلعثماً وخائفاً من أن يتوه عنها، وينتهي إلى مصير مجهول.

وقفنا أمام باب الغرفة، ثمّ ناولتني مفاتيح الغرفة مع ابتسامة أخرى متمنيةً لي إقامة سعيدة.

مرةً أخرى، تظل كلماتها تطن في أذني "إقامة سعيدة، سيدي" إلى حين غادرت هذا المكان بعدَ أربعة أسابيع، وأنا على يقين أن إقامتي لم تكن سعيدةً مطلقاً.

تفاجأت من الغرفة كثيراً، سرير أنيق يتوسطها مغطّى بغطاء زاهي الألوان، عليه رسومات لبيت وحديقة وكثير من الزرع الأخضر، ومخدّات من ريش أُلقيت بأناقة فوق السرير، إلى جانبه توجد طاولة صغيرة، يتوسطها مصباح كبير يرسل إضاءة ذات ألوان خافتة توحي بالرغبة في النوم. فُرشَت الأرضية بسجاد يميل إلى اللون الأخضر وغُطّيت النوافذ بستائر ليلكية، كما لُوّنت الحيطان بلونين: الأخضر والليلكي. كانت الغرفة توحي بكثير من الحياة والفرح، تماماً كما غرفة مراهق مقبل على الحياة. صوت موسيقى انبعث من مسجل عُلّق على الحائط بجانب جهاز التلفاز. في الغرفة نفسها، كان هناك باب يُفتح على حمام أنيق تنبعث منه روائح معطرة، ويمتلئ بكل أنواع الصابون والشامبو.

وضعت حقائبي على السرير، فتحت النافذة، وجُلتُ بنظري على البساط الأخضر الذي يحيط بالمبنى. لا أدري لماذا راودني شعور بالشبع إلى درجة الزوفان. كثير من الأخضر! ليس هناك أي وجود للألوان التي تعوّدت عيناي عليها منذ فترة طويلة في الوطن. سرحت

بخيالي إلى ما سيكون عليه الغد، و لم أستطع استيضاح أي شيء منه، فالحضار كان قد أعمى بصيرتي.

في صباح اليوم التالي، وفي القاعة المخصّصة للطعام، اصطففت وبيدي صينية الطعام منتظراً دوري لآخذ حصتي مما أُعِدّ للفطور، كما كان الآخرون مصطفين أيضاً من قبلي ومن بعدي. أنظر في وجوههم واحداً واحداً، ولا أرى في ملامح أيٍّ منهم من يمكنه أن يكون صديقاً لي، أو حتى رفيقاً يعينني على اجتياز مرحلة يبدو أنها ستكون قاسية، بل قاسية جدًّا. أشعر بغربة أكبر، فأنكمش داخل نفسي، وأقرّر أن لا أنفتح أبداً. شعوري الدائم برطوبة البحر التي تعبق في أنفاسي وتمنع عني راحة التنفس كوّن لدي اختناقاً رافقني طوال الوقت، وعوضاً عن انطلاق نفسي المختبئة منذ دهر أو أكثر، انطلقت تلك الأخرى المفتعلة لأحداث لم أعشها مطلقاً، وانطلق لساني في جلسات البحث الجماعي مع الأنفس التائهة برواية ما هبّ ودبّ من فبركات جاهزة لحوادث لم تحصل.

سرحت في خيالي بصحبة من كانوا يستمعون لي وبلهجتي الأمريكية المتقنة إلى درجة أدهشت الجميع. تحدّثت عن سبب تعلّقي بزجاجتي، فانطلقت لهم شرقاً وغرباً، ولكنّي لم أصل إلى ملامسة جذري أنا. حدّثتهم عن طفولة مزيّفة، ادّعيت فيها أن أبي كان يوسعني ضرباً، وأن أمي لم يكن بيدها أي حيلة تجاه قسوة أبي. أخبرتهم كيف أنني، بسبب كوني الذكر الوحيد في العائلة، كنت أتحمّل مسؤوليات جمّة؛ فقد كان على عاتقي المحافظة على أخواتي ومراقبتهن؛ كي لا يقدمن على أي فعل يمكنه أن يلوّث سمعة العائلة. وأنني كنت مطالباً بالتسوّق مع أبي لشراء كل ما تحتاجه العائلة،

وكيف أن أبـــي كان يجبرني على حمل الحاجيات جميعها، وهو مـــا كان ينهكني.

كنت أرى في عيون الجميع تعاطفاً لوضعي الذي يتلاءم مع مـــا كانوا قد كوّنوه من صورة حول الوضع في الجهة الأخرى من العالم، فأستلذ بدوري في وصف معاناتي المبتدعة لأحصل على المزيـــد مـــن التعاطف، إلى درجة أنني كنت كل يوم، قبل النوم، أحضّـــر لحلقـــة الثرثرة الجماعية هذه، وأكتب سيناريو اليوم القادم؛ وفي كل مـــرة، أترك مستمعيَّ باكين مولولين على سوء طفولتي وشبابـــي. لكنّي لم أتطرق إلى ذلك الفصل الأكثر صعوبة في حياتي، ولم أحدّثهم أبـــداً عن فصل التحوّل. ذلك الفصل من حياتي الذي أنهى علاقتي الحميمة مع نفسي، وقضى على أي إمكانية للتصالح معها.

أصبح بقائي في تلك المصحّة مملاً، ولم يعدْ لديّ ما يمكـــن أن أبتكره. فقد رسمت حياة كاملة بتفاصيلها غريبة عن حياتي، ولا تمتّ لها بصلة، ولم أتجرّأ على الحديث عن حقيقة نفسي المتعَبة، التي بقيت مختبئة طوال الوقت إلى أن انفجرت يوماً ما في وجـــوههم البليـــدة، وخرجت لدقائق معدودة تلعن أسماءهم ولـــون بشـــرتهم وأصـــولهم الأنجلو ساكسونية على الأغلب. وأخذت أصيح بهم دون توقـــف، محمّلاً إيّاهم مسؤولية مأساتي ومأساة أمي وأبـــي وأخواتي جميعـــاً، وبعد أن توقفت عن الصراخ تجمّدتُ في مكاني متـــأمّلاً نظـــراتهم، لأجدهم أيضاً يبكون بتعاطفٍ وحزن.

بعد ما يقارب الأربعة أسابيع وبعد أن أرهقت من اســـتمع لي في فترة علاجي، وأرهقت نفسي في محاولاتي المتكررة للوصول إليها عبثاً، مللت من كل شيء: من أناقة السرير، وألوان الإضاءة، ورائحة

المعطّر في الحمام، وابتسامات الزيف في زوايا الأماكن، ولون الثلج الذي يكسو قمم الجبال على حائط غرفة الاستقبال، وصوت البكاء والنشيج في جلسات العلاج الجماعية، ومحاولاتي الفاشلة لنسيان طعم الحرية التي تمنحني إيّاها زجاجتي، وقررت أن أغادر المكان.

تفاجأت كثيراً للانطباع الذي تركته لدى من تعاملوا معي في تلك الفترة، فقد حظيت بكثير من الثناء والإطراء لشجاعتي وذكائي، وتلقيت كثيراً من الهدايا التذكارية، ورسائل الوداع التي حفلت بكلمات لم أصدقها، هل حقّاً أنا كما يصفون؟ هل نجحت مجدّداً بخداع من حولي، بالرغم من كل ما حاولت إخفاءه. لو أنني أفلح في خداع ذلك المتربّص بي في داخلي، وإقصائه عن تفكيري، لو فعلت ذلك لن أكون الآن مسجّى على سريري مضرجاً بدمي.

عودة غير مظفّرة

في طريق عودتي شعرت بخيبة لم تفارقني؛ كنت أقف في الطابور منتظراً أن يأتي دوري لختم الخروج. ها أنا أعود مرة أخرى خائبـــاً، و لم تكن إقامة سعيدة كما تمنّى لي ذلك الموظف المبتسم. نظرت إلى وجه تلك السيدة التي ختمت جواز سفري بختم الخـــروج، كنـــت حينها على ثقة بأنني سأغادر بلا عودة، وقلت لها:

- هل تسدين لي خدمة؟.

نظرت إليّ باستغراب، وقالت:

- تفضّل سيدي.

- إذا التقيتِ بذلك المبتسم الذي استقبلني عند دخـــولي إلى هنا، أخبريه أن إقامتي لم تكن سعيدة.

ارتسمت علامات استفهام على وجهها وحاولت الاستفسار، إلا أنني نظرت إليها مرة أخرى وقلت لها: "لا عليكِ، سيدتي".

أخذت مكاني في مقعد الطائرة مرة أخرى، وفي اللحظة الـــتي استقرت فيها قدماي على متن الطائرة العائدة من لوس أنجلـــوس إلى مطار الملكة علياء، قمت بنزع حذائي والاسترخاء محاولاً التفكير في أي شيء لا يذكّرني بطعم الشراب في فمي. ورغم كـــل محـــاولاتي للمقاومة، إلا أن يدي امتدت بعد نصف ساعة إلى الجرس المعلّق فوق المقعد، واستدعيت المضيفة طالباً منها كأساً من الشراب مع الـــثلج.

كنت طوال الرحلة أستدعي المضيفة من أجل مزيدٍ من الشراب والثلج. شربت في تلك الساعات العشر ما امتنعت عنه طوال فترة الإقامة في لوس أنجلوس.

عند هبوط الطائرة كان قد قُضي علـي. وصلت إلى قاعة المسافرين مترنّحاً. تماما كالمرة الأولى عندما عدت من الولايات المتحدة خائباً ثملاً، عدت الآن أيضاً بعد عشرين عاماً خائباً ثملاً. في المرة الأولى استقبلتني "أمل" في المطار. مدت ذراعيها حولي معانقةً بشدّة. كان أبي قد أرسلها كي ترافقني عبر الحدود إلى فلسطين، وفرحت هي بهذه المهمة، فقد كانت أولى سفراتها خارج الوطن. جاءت "أمل" إلى المطار، لا تعلم عني شيئاً سوى أنني فشلت في إحراز الهدف المنتظر بأن أعود ظافراً بشهادتي الجامعية، ولكنها لم تعلم حينها أن الشهادة كانت أهون مشاكلي. أظنها بدأت تدرك ذلك لحظةَ عانقها لي؛ إذ إنها بعد دموع الاشتياق، نظرت إلي قائلة:

- عامر، رائحتك توحي وكأنك خارج من مقهى للشراب.

ضحكت آنذاك ضحكة مجنونة واحتضنتها بحب قائلاً:

- لا تقلقي، مجرد كأس في الطائرة.

اليوم، وبعد هبوطي، أشتاق لوجودها في المطار كي أحتضنها مطمئِنًا. بعد مغادرتي المطار، أتوجّه إلى أول كشكٍ للهاتف، وأدير رقم هاتف بيتها، يأتيني صوتها، فأشعر أن يديّ ما زالتا تحتضنانها تماماً كما المرة الأولى:

- عامر، هذا أنت؟

- نعم، "أمل"، أنا مشتاق لك جدًّا، لا تقلقي، فلم أتناول أي مشروب منذ أن غادرت. سأعود قريباً لنعمل من

جديد على استعادة حلمنا الذي حلمناه سوية. أتـــذكرين أمل؟.

ترد مختنقةً بغصّة دموع أدركتها عبر صوتها المرتجـــف: أذكـــر طبعاً، "عامر"، أذكر حلمنا جيّداً.

الفصل الثاني

كيف ابتدأت حكايتي

أراها الآن بجلاء ووضوح، ألم مختلط بابتسامة على شفتيها، تحيط بها جموع من نساء العائلة، عمّتاي الاثنتان، وجدتي لأبي، وبعض المتطفلات من ساكنات البيوت المجاورة لبيت جدي، يطلقن زغاريدهن ابتهاجاً بقدومي، دون أن يعرن اهتماماً لآلامها التي تكبدت عناء ولادتي. وفي تلك الغرفة الصغيرة المكدّسة بأثاثٍ مُستعمَلٍ قديم، وعلى ذلك السرير اليتيم الذي حظيت أمي بشرف الاستلقاء عليه من أجل أن تتم عملية الولادة بسلاسة، وعلى يد القابلة "أم علي"، خرجتُ باكياً إلى الحياة، وكأنني أدركت مسبقاً أنها ستكون مليئة بالألم الذي ابتدأ منذ لحظة انبثاق الضوء في عينيّ.

أما هي، فرغم الألم الذي تكبّدته أثناء ولادتي، كانت تنتشي بسعادة غامرة، تحتضنني بقوة وحنان وكأنني المخلّص. أشعر الآن الحنان المتدفق من ثدييها أستمدّه من حليبها الطازج في فمي الصغير. حنان النظرة في عينيها يولمني الآن! يدفعني لأن أتمنى العودة إلى ذلك الحضن الدافئ والبقاء فيه إلى الأبد، وأن أحظى بمزيد من قبلات على جبيني ولمسات على شعري. كم هي صغيرة تلك المطالب الآن! كم هي بسيطة لحظات السعادة! ليست سوى التصاق اللحم باللحم، وكأن اندماج الجسد بالجسد يروي تلك الروح الهائمة ويعيدها إلى مأمنها. كم أتمنى أن أعود الآن وأعيش لذة التصاقي بجسد أمي الدافئ، وألاّ أستعجل الانفصال، بل أكبر رويداً رويداً، دون أن أستدعي أي لحظة قادمة، لأن كل لحظة تمر بنا، تقرّبنا إلى عنق

زجاجة نقبع فيها منتظرين أن ندخل النفق.

ها هي "أمل" الصغيرة تخطو خطواتها الأولى، مندفعة باتجاه السرير القديم، حيث ألتف بحنان أمي. تدنو مني وتنظر بغرابة إلى وجهي، تتأمل الزائر الجديد، وتبكي بحرقة من فقْد عشها الآمن. ورغم السعادة التي تنتشي بها أمي بالنظر الدائم إلى وجهي، إلا أنها لم تهمل يدي أمل الممدودتين. تربّتهما، وتمنحها نظرات حنان دافئة، وتقرب وجهي من وجهها، وتخبرها أنني شقيقها، وأنني سألعب معها عندما أكبر قليلاً. لا تفهم "أمل" ما قالته أمي، فتعاود بكاءها مطالبة إيّاها برفعها إلى السرير واحتضانها. تهم أمي بالاستجابة لبكائها، إلا أن يديّ عمتي تسبقان أمي لتطبقا على جسد أمل النحيل، وتحملها بعنف مبتعدةً بها عن السرير الذي تستلقي عليه أمي. بكاء "أمل" يملأ الغرفة الضيّقة، ويترك على وجه أمي مسحة حزن لا تلبث أن تبدل حين أستفيق أنا من نومي الهانئ، مذكّراً إياها بأني أخيراً قد أصبحت حقيقة و لم أعد أملاً بعيد المنال.

كانت أمي قد عانت كثيراً، قبل أن تُرزق بي، من لوم دائم على تقصيرها في إنجاب ذكر لعائلة شحّ فيها عدد الذكور، فقد كان أبي الذكر الوحيد في العائلة، هذا بعد أن فقدت جدتي عدداً لا بأس به من الأبناء الذكور؛ كونهم لا يتمتعون بقوة البقاء في ذلك الزمن الذي انتشرت فيه الأمراض السارية المتعدّدة، كالحصبة والسعال الديكي والملاريا، التي كانت تجتاح منطقة ما فتحصد أرواحاً كثيرة، ويصادف أن يحالف الحظ قليلاً منهم فينجون من الإصابة بها. وفي عائلة جدّتي تمكن أبي وأختاه الاثنتان من النجاة، فكانت النتيجة أن كان والدي الذكر الوحيد في العائلة كما كان

جدّي كذلك، إذ لم يكن له إخوة ذكور. وعليه فقد كان من المتوقّع أن تعوّض أمي ذلك النقص المربك للعائلة بأن تنجب كثيراً من الذكور، إلا أنها فشلت في ذلك فشلاً ذريعاً؛ فأنجبت بدل الذكور خمسَ إناث؛ ما أغضب جدتي وعماتي، وكسر خاطر أبي الذي، رغم رقة قلبه، كان يشعر أن هم البنات إلى الممات، وأن لديه حملاً كبيراً سيحمله طوال عمره. لم يدرك أبي حينذاك، أن همي أنا، هو الذي سيحمله معه إلى الممات.

عماتي كن يقمن الدنيا ويقعدنها في كل مرة تنجب فيها أمي إحدى إناثها، وكثيراً ما تمنّين الموت لهن، انهن يأسن من رحمة الله الذي منح أبي كل هذا العدد من الإناث. وبالطبع تحمّلت أمي مسؤولية ذلك؛ إذ إن الاعتقاد الذي ساد في ذلك الوقت أن الأم هي التي تحدّد جنس المولود، وانتشر حينها إيمانٌ أن هناك أرحاماً تنبت ذكوراً وأخرى تنبت إناثاً. انتاب أمي شعورٌ دائمٌ بالذنب والخيبة من نفسها؛ لأن رحمها كانت أنثويّة، ما جعلها تعيش حالة انكسار دائم أمام عائلة زوجها، أبي. وبعد قدومي استردّت أمي بعضاً من كبريائها المهدورة، لا سيَّما أنها كانت تنحدر من إحدى العائلات المتنفّذة في القرية، وكان والدها يتمتّع بشخصية قوية، ويهابه معظم سكان القرية، فقد عُرِف بصلابته وجبروته، حتى أنه كان ممن يلاحقهم الاحتلال البريطاني آنذاك، فقد كان منخرطاً مع مجموعات مقاتلة ضده، كان يقودها "حسن سلامة"، الذي تربطه بجدّي قرابة دم.

قبل قدومي كان أبي قد قرّر التخلّص مني، فلم يكن واثقاً، عندما أخبرته أمي أنها حامل، من أن الطفل القادم سيكون ذكراً، وتملّكه الخوف من أن تلد له أنثى أخرى هو بغنى عنها. و لم يكن

باستطاعة أمي آنذاك رفضَ قراره أيضاً، لأن الخوف كان يسيطر عليها من إنجاب أنثى أخرى؛ فأذعنت للقرار ووافقت أن يصطحبها أبـي إلى الطبيب كي تتخلّص من الحمل، رغم أنها كانت في قرارة نفسها تأمل في حدوث ما يقنعه بالعدول عن رأيه. وعند وصولهما إلى المستشفى، تأخّر الطبيب؛ فاضطرت هي وأبـي إلى الانتظار ساعات من الملل، إلى أن قرر أبـي أن يلغي الموضوع قائلاً لأمي:

- توكّلنا على الله، لنبقِ هذا الطفل، فربما نرى على وجهه الخير.

تنفّست أمي الصعداء؛ فقد كانت تعلم علم اليقين أنها تحتفظ الآن بفرصتها الأخيرة في استعادة كرامتها إنْ كان القادم الجديد ذكراً، وأنها ستحظى بفرصتها الأخيرة كي تنجب لأبـي من سيحمل اسمه، واسم عائلته إلى الأبد. عادا إلى البيت بعد أن ابتاع أبـي لها معطفاً بالنقود التي كان سيدفعها ثمناً للعملية. أتساءل الآن، إن كان سيعدل عن قراره، لو كان يعلم إلى أين سأسير به في رحلتي المتعبة؟ وهل كانت أمي ستستبدل بيَ المعطف ليقيها برد الشتاء، ويدرأ عنها ألماً سأتسبّب به وسيقضّ مضجعها إلى الأبد؟

أود لو أنها الآن تستطيع الإجابة عن هذا السؤال. أتمنى لو أستطيع أن أعرف كم مرة تذكرت لحظة القرار في عيادة الطبيب! كم مرة تمنّت لو أن الطبيب لم يتأخّر ولو أن أبـي لم يعدل عن قراره! كم مرة حدّثت نفسها سرًّا بأن القدر لم يسعفها لأن تنجو من ألم وجودي في حياتها! وكم مرة صبّت جامّ غضبها على مجتمع اختبر أمومتها خمس مرات و لم يكتفِ إلا عندما ولدتني، وولدت معي ألماً رافقها حتى بعد أن دخلت عنق الزجاجة!

أما في تلك اللحظات، لحظات الفرح بوجودي الــذي يكلّــل اكتمال أمومتها، فلم تكن سوى امرأة جميلة متباهية بما وهبها الله من نعمة بوجودي في حياتها. لكنها، رغم كل ما كان يحصل لهــا مــن محاولات وصاية عليها وعلى مولودها - ولي العهد - في العائلــة، لم تغفل دورها الأمومي تجاه شقيقاتي؛ فقد حرصت أن تخصهن جميعهن بحنان وحب غامرين. أما أبــي الذي كان قد أثقل كاهله حمل هذا العدد من الأطفال، فقد تنفّس الصعداء؛ لأن قدومي كان بالتأكيــد سينهي ملف الإنجاب بالنسـبة إليه.

لقد حظيت، أنا وأمّي، في أيّام قدومي الأولى برعاية من نــوع خاص جدًّا. كانت جدتي، وللمرة الأولى، تطهو طعاماً خاصًّا مــن الدجاج المحمّر والمرق اللذيذ، ذلك أن هذا الطعــام كــان يُصــنع خصّيصاً للمرضعات في ذلك الوقت. كما سمح لأمي وللمــرة الأولى أن تبقى مستلقية على السرير لأنها "نفسة"، أي ما زالت ضعيفة، ولا يمكنها القيام بمهام البيت. نشطت عماتي في تدليل أمي والاهتمام بها وبأخواتي الصغيرات اللواتي كثيراً ما حاولن التسلّل إلى حضن أمــي، في محاولة للحصول على بعض الحنان. لكنّ عماتي، لا سيّما الصغيرة منهن، كنّ لهن بالمرصاد، فينهرهن في كل مرة؛ كي لا يــزعجن أم الأمير الصغير، المستلقي على السرير بجانبها. كانت أمي تؤشّر لهــن بحنان أن يبتعدن، وتعدهن أنها ستستعيد عافيتــها ســريعاً وتعــود للاهتمام بهنّ.

كبرت وأنا أشعر أن خطواتي الصغيره تحدث أثراً كبيراً في المحيط الذي أعيش فيه، وأن الأنظار جميعها تتسلط باستمرار علــى كــل حركة أو إيماءة أقوم بها. أما أولى كلماتي فقــد حظيــت بتــهليل

وتصفيق، إلى درجة أنني حسبت أن قدرتي على الحديث خارقة.

وما زاد احتفاءهم بـــي، ما خصّني به الله من ملامح جميلـــة، فقد ورثت عن أبـــي حجم عينيه الكبيرتين، وعن أمي لون الخضـــار النقي، الذي يندر وجوده في فلسطين. كما أنّ لون خصلات شعري الذهبية كانت مدعاة لإثارة كثير من الحاسدين؛ ما حـــدا بـــأمي أن تضع بين ثنايا ثيابـــي حجراً أزرق، كان يسبّب لي الضيق فأصـــرخ ألماً في بعض الأحيان. لم يحدث ذلك الحجر أي مفعول؛ فقد كانـــت بنيتي ضعيفة، ومقاومتي للمرض سيئة، فكنـــت كـــثيراً مـــا أُصـــاب بأمراض الرشح والإنفلونزا؛ ولأنني كنز العائلة الثمين، فقـــد كنـــت أُعرض على الطبيب باستمرار، ولم يحصل أن اهمل أهلي صحّتي يوماً. أما شهيتي للطعام، فقد كانت ضعيفة، فكثيراً ما كانت أمي تضـــطر إلى الجري خلفي، في محاولة منها لإطعامي، وكنت أهـــرب منـــها رافضاً الطّعام، وعندما تيأس من محاولاتها، كانت تنادي على إحدى أخواتي، وتطعمها ما بقي من طبقي. ولكن بعد فصل التحوّل، تأكّد لأمي أن ما اتخذته من احتياطات لدرء الحسد عني، قد فشل فشـــلاً ذريعاً.

كانت أمي تميّزني في كل شيء، في المأكل، والمشرب، والملبس. أما أبـــي فقد ميّزني بالمصروف اليـــومي، الـــذي لم يكـــن يمنحـــه لأحد سواي ودونما أن يكون لأخواتي مثل ما لي. كنا نجتمع علـــى مائدة الغداء، إذ كانت المكان الذي نلتقي كلّنا عنده يوميًّا. يصـــل أبـــي من عمله إلى البيت في منتصف النهار، أمّا أمي فتكـــون قـــد أعدّت المائدة منتظرة لحظة وصوله، وبعد ذلك نجلس لتناول طعـــام الغداء معاً.

نظرات شقيقاتي المسلطة على طبقي المميّز، ما زالت تنطبع في ذاكرتي؛ إذ كانت تخصني أمّي بحصتين من الدجاج أو اللحم، كما كانت تملأ طبقي بكميات هائلة من الطعام. كانت "ميّادة" أكثر أخواتي احتجاجاً، إذ كثيراً ما أبدت امتعاضها من هذا التمييز الصارخ. وجواب أمي الدائم لها كان: "أخوك صغير ويحتاج للتغذية"، لكنّ ذلك لم يقنعها مطلقاً. كانت أمي تضطر أحياناً إلى أن تتنازل لها عن بعضٍ من حصّتها في الطّعام لكي تسكتها. أما "أمل" فلم تعر اهتماماً لهذا الشيء، بل كانت دائمة الاكتفاء بما تحصل عليه، وهذا بالتحديد ما جعلها مستقبلاً حاملة لأسراري وملاذاً لي في أزماتي. وكأننا منذ أن نأتي إلى هذه الدنيا نحمل في طياتنا ملامح تكويننا النفسي، وهو الذي يحدِّد هويتنا فيما بعد، فإمّا أن تحكمنا رغباتنا في الامتلاك، فنتحوّل كائناتٍ جشعةً تقتات من موائد الآخرين، وإما أن نكتفي بما تمنحه لنا الحياة في أطباقنا ونسمح للآخرين بأن يتقاسموا معنا دمعهم وضحكاتهم.

لم أكن أنا لأختار مثل هذا التميز، بل كنت في داخلي أمقت كوني تحت مجهر الاهتمام؛ كان ذلك يتعبني ويرهقني، إذ إنه سبّبَ لي توتّراً دائماً بيني وبين شقيقاتي. كما أنّني تعوّدت عليه لدرجة أنني صدقته، وكوّنت في داخلي صورة عن نفسي ترتقي إلى صفوف الأمراء.

ارتطمت هذه الصورة بالواقع عندما التحقت بالمدرسة. فقد اختار لي أبي المدرسة التي يرتادها كبار القوم، وهي مدرسة تابعة لمنظمة الكويكرز العالمية، وتعد الأعرق في المنطقة. كانت تلك المدرسة مميّزة، ذلك أنها كانت تُعلّم طلابها اللغة الإنجليزية منذ

الصغر، ولهذا فقد تبوّأ معظم خرّيجيها مناصب ذات أهمية في معظم المواقع. وكان أبي قد رسم لي دوراً كما أدوار الكبار، وتأمّل أن هذه المدرسة رغم تكاليفها المرتفعة، ستضمن لي مكاناً في قمّة الهرم. أما أنا، فقد أدركت منذ اليوم الأول لي في هذه المدرسة، أنّني لم أكن أميراً إلا على شقيقاتي.

كان طلاب هذه المدرسة يفاخرون بهذا التميّز، وينعكس ذلك في نظرتهم لأنفسهم ولمن حولهم من طلاب المدارس الحكومية؛ فتراهم يتباهون بمقدرتهم على التحدّث بالإنجليزية، ويتعمّدون إدخالها في حديثهم، لإشعار من حولهم بفوقيتهم وعلوهم طبقيًّا. أما أنا، فقد كنت أحاول اللحاق بهم، ولرغبتي بالقبول في مجتمعي الصغير في المدرسة كنت أعمد كذلك إلى التشبّه بهم، فأدخل كثيراً من مصطلحات اللغة الإنجليزية التي تفوّقت في إتقانها في حديثي بشكل دائم. كل هذا عزّز شعوري الشخصي بالتميُّز عن شقيقاتي، وكبر هذا الشعور في نفسي، لدرجة أنني كنت أتفاخر به أمامهن؛ وكثيراً ما كنت أماحكهن بأن وجودهن كان ممهّداً لوجودي، وأنه لولا عدم قدومي في البداية لما كن قد وُجدن بالأساس. لم أكن أدرك وقتها أنني سأكون أول من يغادرها، وكأنني جئت مختصماً لأغادر مسرعاً.

أما أبي، ذلك الذي أثقله حملي على مدى سنوات عمري القصيرة، فقد أثقله أيضاً حمل حقيبتي المدرسية صباحاً وهو يصطحبني إلى المدرسة سيراً على الأقدام كل يوم. كان يَتعب بحمل تلك الحقيبة المليئة بالكتب المدرسية الثقيلة الوزن ولكنه كان يصرّ على عمل ذلك، حتى لو حاولت أن أمنعه. في الحقيقة، كنت كثيراً ما أحرج

جدًّا أمام زملائي الذين كانوا يرونني برفقته كل صباح وهو يحمل حقيبتي، وكثيراً ما كنت أتعرّض لمضايقاتهم ونعتهم لي بألقاب توحي بأنني ضعيف ومدلّل. وكثيراً ما كنت أحاول ثنيه عن إيصالي إلى باب المدرسة، تجنّباً لتلك التعليقات، إلا أنه كان يرفض ذلك باستمرار. حافظ أبي على هذه العادة حتى عندما كبرت، فقد كان يصر على مرافقتي إلى باب سيارتي، ويتأكد من خلو الطريق في كل مرة كنت أقوم بزيارته، بعد أن انفصلت عن بيت العائلة واقتنيت واحداً لي. كم كان ذلك الفعل يضايقني ويسبب توتّراً بيني وبينه. كنت أحاول دائماً أن أكبر أمام عينيه، أن تطول قامتي قامتي فيراني، لكنّني أدرك الآن أن ما فعله كان منطلقاً من حبه وحرصه الشديدين عليّ، إلاّ أنّه لم يكن يدرك أن هذا الحب كان حبلاً يطوّق عنقي، وسدًّا منيعاً أمام سعيي المتواصل للتحليق بعيداً عنه.

كان أكثر ما يؤلمني في المدرسة هو شعوري بالنقص أمام زملائي وزميلاتي، فقد كانت إمكانيات أبي لا تسمح لي باقتناء أنواع الحقائب التي يحملونها أو حتى الأحذية التي ينتعلونها، وكثيراً ما حاولت التهرّب من إلحاحهم على زيارتي في البيت خوفاً من رؤية بيتنا المتواضع الذي لا يداني، بأي شكل من الأشكال، البيوت الفخمة التي يقطنونها. كان لي في المدرسة صديق واحد أعتز به وأُسرّ له بكل ما يخالجني، وكان يشبهني صدفةً بالمظهر؛ فأمه كانت تنحدر من أصل إنجليزي، لذلك اتّسم بمظهر غربي، وملامح لا توحي بعروبته. صديقي "سعد" كان يشاركني أيضاً تفرّده بالذكورة في عائلته، ولهذا فقد كان يحظى أيضاً باهتمام خاص من والديه. وكان مثلي إذ يشعر بالضغط الذي يمارسه والداه عليه، بل أكثر من ذلك

أنّ أمه الإنجليزية كانت تشعر باغتراب شديد عن المجتمع الذي تعيش فيه؛ ما دفعها للتمسك بأبنائها بشدّة، وهو ما سبّب الضيق الشديد لصديقي سعد، وولّد لديه رغبة في التمرد، وربما كان هذا أكثر ما جمعني به، رغبة عميقة بالخروج من طوق سُلّط علينا بمحبة، ولكن كان يضغط على أعناقنا إلى درجة الاختناق.

كنتُ وإيّاه دائمي البحث عن طريق نسلكه، ويعبّر عن رغبتنا الجامحة في التمرد، فأثرنا كثيراً من المشاكل مع أساتذتنا وإدارة المدرسة، وتصدّرنا معظم النشاطات الاحتجاجية ضدّ الإدارة، إلى أن أصبح اسمانا معروفين لدى كثير من الطلاب، وأصبحنا الأكثر شعبية على مستوى المدرسة. كان هذا بالنسبة إليّ تعويضاً عن شعوري بالتدني الطبقي أمام زملائي، وأشعرني بالرضا الكبير، فأوغلت في التمرّد محاولاً الإبقاء على تلك الشعبية التي أحظى بها بين طلاب المدرسة، تلك التي زادت من شعوري بعظمتي وتميّزي.

كثيراً ما تسلّلنا، أنا وسعد، من المدرسة عبر فتحة في الجدار، وأطلقنا أقدامنا لحرية نحلم بها. فنتسكّع في الشوارع، وندخل المقاهي بعد أن نبتاع علبة سجائر مشتركة، ونجلس متباهين برجولتنا ونحن ننفث دخان سجائرنا، ونراقب كيف تشكل دوائر في الهواء. لقد كان دخان سجائري وهو يخرج من فمي أو أنفي يشعرني بقدرتي على الفعل، وأنني في الحقيقة أنفث قيودي الملتفة على عنقي وأنثرها في الهواء. كانت هذه اللحظات هي الأمتع في حياتي، وكنت أنتظر الصباح بفارغ الصبّر كي أصل المدرسة، فأتشاور وسعد حول الحصة التي لا نرغب في حضورها، ونتّفق معاً كيف سنغادر.

كانت مشكلتي الوحيدة هي النقود التي لم أكن أملك كثيراً منها؛ فقد كان أبي يمدّني ببعض الأغورات التي كانت بالكاد تكفي لشطيرة أبتاعها من الكافتيريا. ومع ذلك، كنت أستغني عن تلك الشطيرة، لأبتاع مع سعد علبة السجائر؛ وكان سعد في الأغلب يدفع النصيب الأكبر.

ومن هذه المقاهي بالتحديد ابتدأ مشواري في مقارعة نفسي، إذ إنني كنت ألتقي وسعد طلاباً من مدارس أخرى يجلسون في هذه المقاهي. أذكر كيف تعاركنا أول مرة وَلَجنا فيها قهوة البلد مع مجموعة من الشبان الذين ما إن وقعت أعينهم علينا حتى بدأوا بالاستهزاء بنا ونعتنا بألقاب توحي بعدم رجوليّتنا، فقد كان الزي المدرسي يفضح هويتنا الطبقية. وكان طلاب مدرستي كثيراً ما يتعرّضون لتعليقات مشينة تطعن بذكوريتهم، وتستهزئ حتى بانتمائهم للوطن، وقد كانوا موضوع تفكُّهٍ عند اندلاع المظاهرات، إذ اعتاد الجميع تقليدهم بترقيق اللهجة عند هتافهم "يحيا الوطن" مما كان يثير غضبي كثيراً؛ وحدا بي وببعض رفاقي إلى المبالغة في إظهار خشونتنا الذكورية لإثبات انتمائنا الحقيقي للوطن بتضخيم الطاء.

في تلك المقاهي تعرّفت إلى "علي"، الذي أصبح فيما بعد زوج شقيقتي "أمل" وقد كان خجولاً، هادئاً بطبعه، إلا أنه كان عميق التفكير، وحذراً جداً. وقد كنت أنا وسعد نستمتع بالنقاشات التي نخوضها معه، إذ كنا نتفق تماماً مع أفكاره التي كانت أقرب إلى اليسار، وكان علي يأتي إلى المقهى مع مجموعة أخرى من الشباب الذين يشاركونه توجهه السياسي. ثم نمت بيننا وبين هذه المجموعة

صداقة متميزة، واستطعنا أن نبني لديهم بعضاً من الثقة برجولتنا. وفي تلك الفترة انفتحت على عالم القراءة، إذ إن النقاشات التي كنا نخوضها معهم، كانت تمثل تحدياً ثقافيًّا؛ ففي هذه الجلسات سمعت عن"ياخوت" والمادية الديالكتيكية، وأعجبت بفكر ماركس ولينين، كما تعرفت إلى الأدب السوفييتي، الذي كان رائجاً في تلك الفترة؛ فقرأت عدداً من الروايات الرائعة لمكسيم جوركي وديستويفسكي. أذكر أنني يوماً قرّرت قراءة رواية "خمس ساعات حتى الخلود" ولم أستطع أن أترك الكتاب من يدي، فسهرت إلى الفجر متماهياً مع الرواية إلى أن أنهيتها، ونمت أحلم ببطولة أبطالها الرائعة، إلى أن أتت إليّ أمي لإيقاظي، فادّعيت المرض، وأكملت نومي ولم أذهب إلى المدرسة.

كنت، أنا وسعد، نتعجّل انتهاء الدوام يوميًّا؛ كي نذهب للقاء علي ورفاقه، وكان كل منا يحرص على أن يحمل معه كتاباً جديداً لنتفاخر بقراءته أمامهم. لكننا لاحظنا أننا في لحظة دخولنا المقهى، وفي اللحظة التي يلمحوننا فيها، ينقطع بينهم حديث كان قد ابتدأ قبلَ قدومنا؛ وكنا نتساءل إن كان الحديث يدور حولنا، إلى أن أسرّ لنا أحدهم أنهم يجلسون هنا، كي يخطّطوا لرمي الحجارة على سيارات العدو ودورياته التي كانت تجوب الشوارع بحرية، وكانوا يطلقون على أنفسهم المجموعات الضاربة.

راقت لنا الفكرة كثيراً، وطلبنا من "باهر"، وهو من أخبرنا بالسر، أن ننضمّ إليهم، إلا أنّه أبدى تحفّظه مشكّكاً بقدرتنا على الصمود في مثل تلك المغامرة، التي ربما تؤدي إلى الاعتقال. ولم يتحفّظ "باهر" عن إخبارنا بأنّنا ننتمي إلى عالم آخر، وأننا، على حد

تعبيره، "بسكوت"، أي أنّنا أرقّ من أن نكون جزءاً من تجربة قاسية كهذه، لكنّه طلب منا أن نحتفظ بالسر، وألاّ نخبر أي شخص آخر.

لم يرق لنا ما قاله "باهر"، فقرّرتُ أنا وسعد أن نخوضَ مغامرة على عاتقنا الشخصي، كي نحظى بشرف الانتماء إليهم، ونثبت أُننا لا نقل رجولة عن أي واحد منهم. من هنا ابتدأ فصل حياتي الأكثر صعوبة.

الفصل الثالث

فصل التحوّل

ركض الجميع باتجاه غرف الصفّ وتهاووا على المقاعد منهكين.
كنت يومها قد خرقت القوانين التي وضعها أبـــي، إذ حذّرني من أنّ أي محاولة مني بالانخراط في أي نشاط، تعدّ خطراً سيقضي عليه، فهو لن يتحمّل نتائج عمل طائش كهذا. كما أن أمي كثيًرا ما كـــررت قول أبـــي مضيفة إليه كثيراً من الدموع، والتـــذكير بـــأنني أملـــها الوحيد في هذه الحياة، وأنّ أي ضرر يلحق بـــي يعني انهياراً كـــاملاً لحلمها الذي بنته اعتماداً عليّ. كم كان هذا يرهقني، وكـــثيراً مـــا تمنيت لو كنت كما معظم الأولاد، لست مميّزاً أو وحيداً بـــذكوريتي التي جلبت لي كل ذلك الشقاء.
لم يكن أمر التزامي برغبات والدي سهلاً، فقد كان في داخلي رغبة في التجربة، في اختبار نفسي أمام الخوف. هل سيتغلب عليّ، أم أنني سأفاجئه، وأنتصر عليه، وأتصرف كما يفعل من أراهم يقارعون يوميًا دوريات الاحتلال برشاقة، وكأنهم ملائكة تهبط من مكان مـــا من السماء، وتعود ترتفع مرة أخرى؟ مثلُ هذا المنظر كان يدغـــدغ رغبتي في التمرد على طوق الياسمين المعلّق في رقبتي، وحاجة ماســـة تلح عليّ بأن أكون واحداً منهم، واحداً على الأقلّ مثلـــهم. كنـــت أتساءل دائماً وأنا أراهم شباباً وشابّات في مثل عمري: ألـــيس لهـــم أهل مثلي يحبونهم، ولا يرغبون في رؤيتهم شـــهداء محمّلـــين علـــى الأكف في الطريق إلى المجهول؟ أم أنني الوحيد، المتفرد بحبٍّ لا يشبهه حبٌّ. رغم ذلك، كنت أحسدهم لأنهم يمتلكـــون حريـــة تقريـــر

مصيرهم، حرية أن يمسكوا بحجر يلقونه أمام عجلات الدوريات التي تنهك شوارعهم، وتدب بقسوة على طرقات مدينة ألفوا كل ما فيها، ولم يألفوا أصوات زعيق غريب يخرج من بوق تلك الدوريات، آمراً الجميع وبلكنة توحي بالتعالي والغطرسة أن يلزموا بيوتهم، بناءً على أمرٍ من الحاكم العسكري.

كان هذا يتكرر تقريباً كلَّ يوم، ولم يكن هناك من يتصدّى لهذا القهر، سوى مجموعات صغيرة من الشبان الذين اجتهدوا في ابتداع أساليب مقاومة جديدة. فتشكّلت مجموعات ضاربة تستخدم ما في متناول اليد، ولم يكن في متناولها حينذاك سوى حجارة، فأصبح الحجر ينطق بين أيديهم غضباً، وتنافسوا فيما بينهم حول من يستطيع أن يصل بحجره مدىً أبعد من الآخر، قرّرتُ أنا وسعد أن نعد العدّة لننالَ شرفَ الانتماء إلى هذه المجموعات، وابتدأنا بالتدرّب على إلقاء الحجارة. وحيثُ إننا كنا نقطن في بيت صغير بُني في الستينّات من القرن الماضي، وكان أبي قد استأجره قبل أن تندلع حرب الأيام الستة في العام 1967، فما كان يميز هذا البيت هو كونه جزءاً من ثلاثة بيوت مستقلة، تشترك في ساحة كبيرة، ويحيط بالبيوت الثلاثة حديقة كبيرة جدًّا ومليئة بكلّ أنواع الأشجار المثمرة، التي كثيراً ما اشتهيت ما تنبته، وتمنّيت لو أستطيع التسللَ لقطفِ بعضِ الثمار، لا سيّما البرقوق، التي كنت أعشق طعمها الحامض قبل أن تنضج، ولكنّ أمّي كانت تكرّر على مسامعنا دائماً أن هذه الأشجار ليست ملكاً لنا، بل للمرأة التي تقطن أحد البيوت الثلاثة، وتعمد بشكلٍ دائمٍ إلى مراقبة المتسلّلين إلى أشجارها. تلك الأشجار، ولوقت طويل من الزمن، كانت تشكّل مكاناً مناسباً لمرمى حجارتي التي كنت

ألقيها كي يشتدَّ ساعدي، وأفلح في إقناع المجموعات الضاربة بأهليّتي للانضمام إليهم.

رغم الساعات التي قضيتها في التدريب، فشلت في إقناع مسؤولي المجموعات الضاربة بقبولي عضواً فاعلاً في مجموعاقم؛ فقد قيل لي: إنني ما زلت تحت الاختبار، وأنّهم يخشون أن أخذلهم، وأن لا أتمكن من الفرار عند الحاجة، ما سيعرّضهم للخطر.

لذلك قرّرت في ذلك اليوم أن أثبت مهارتي، وأن أكون كما الآخرين، أن أتّبعهم وأشاركهم فعلَهم الطائش في نظر أبي، والبطولي في نظر رفاقي. كان الغضب يعم المدينة في ذلك اليوم، نتيجة لاستشهاد "لينا النابلسي"، تلك الطالبة من مدينة نابلس، التي لحق بها الجنود إلى باب بيتها واغتالوها وهي ترتدي زي المدرسة، ولم يكن من الممكن أن يُكبح هذا الغضب بأي شكلٍ من الأشكال. وكانت قيادات الطلبة قد أعلنت الحداد، ودعت لإشعال الأرض ناراً تحت عربات جنود الاحتلال. وصلتُ المدرسة باكراً وتوجّهت نحو صديقي "سعد"، واتّفقت معه على أن اليوم سيشكل فرصتنا الحقيقية في إثبات جدارتنا، واستوضحت منه حول ما خُطّطَ له، وكيف سنُنفّذه، وحدّدنا مواقعنا الهجومية، ثمّ انطلقنا في مجموعات صغيرة. تَمَتْرس كل ثلاثة منا في زاوية ما في الشارع الرئيسي للمدينة، بعد أن أشعلنا النار في إطارات السيارات، ووضعناها في منتصف الطريق، محاولين عرقلة وصول دورياقم إلى المنارة، وهو الاسم الذي يُطلق على ميدان المدينة الرئيس.

تأهّب الجميع عند سماعهم صوت الدوريات تقترب من الحاجز الذي أقمناه، وانطلقت صافرةٌ من أحد الشبان، كإشارة لبدء الهجوم، وفي لحظة نسيت فيها عينيّ أمي المتوسّلتين، ووجه أبي المتجهّم،

رفعت يدي الممتلئة بالحجارة، وفي لحظة اقترابها العنكبوتي، أطلقت حجارتي صوب زجاجها الأمامي. سمعت صوت الزجاج يتكسر بفعل حجارتي، وانتابني شعورٌ مختلط من الفرح ونشوة الانتصار، يرافقه إحساس بورطة قادمة، سأدفع ثمنها غالياً. يبدو أن يدي الرقيقة تمكّنت من إصابة ما في داخل هذه العنكبوت الاحتلالية القميئة. إذ فجأة دوت مزامير الخطر، وانطلق صوت صافرات تنذر بغضب قادم سيطال بالتأكيد عنق أحد ما. كنت في تلك اللحظة أركض بكل ما أوتيت من قوة تجاه المدرسة، أملاً بأن لا يكون عنقي هو الهدف. هاويت على مقعدي في غرفة الصف، وحاولت مسح يدي الممتلئة بأثر الحجارة. كان القلق بادياً على وجهي، وقلبي يخفق بقوة، حتى ظننتُ أنه سيخرج من بين ضلوعي، معلناً خوفه الشديد من اللحظة القادمة. تلك اللحظة التي أتت بسرعة، وكما توقّعت، استحقت - وبحق - لقب لحظة التحوّل المدمِّر.

اقتحم الجنود باب المدرسة، واحتجزوا الحارس الذي حاول منعهم من الدخول، وتمكّنوا من الوصول إلى غرف الصفوف. وقف ضابط الفرقة أمام مجموعة مذعورة من الجنود على باب غرفة الصف. لم أستطع أن أرفع عينيّ تجاه أي منهم، فقد كان وجه أبي في هذه اللحظه يلاحقني متّهماً معاتباً متجهّماً. كان وجه أبي يرعبُني أكثر من وجوه هؤلاء الجنود. كما كان وجه أمي يطلّ أحياناً من خلف أبي، وهي تبكي وتشكو لله سوء حظها. فجأة، ودون إنذار مسبق، أمسك أحد الجنود برقبتي، وتحدث بالعبرية، التي لم أكن أفهمها، مع الضابط. نظر الجنود جميعاً إلي، واقترب أحدهم منّي، وبعربية مكسّرة أمرني:

- افتح إيدك!

مرتجفة، وخائفة بدت تلك اليد المتّسخة ببقايا الحجارة المتحدّية لجبروتهم، وأبوية أبـــي، ودموع أمي.

- ما زاي؟ (ما هذا؟).

حاولت تحريك شفتيّ، وإصدار صوت لأجيبه، لكنّ الكلمـــات ارتدت في سقف حلقي، محدثةً شعوراً بانفجار صوتي، خرج علـــى شكل سعال جاف.

أعاد الجندي صراخه آمراً بأن أنهض من مقعدي وأتبعه لأنضم إلى "سعد" و"أيهم"، اللذين كانا قد أُمرا بالوقوف إلى الحـــائط قبلـــي. لم أصدّق أن قدميّ حملتاني باتجاه الحائط، كنت قد أمرتهما مراراً بالوقوف، ولكنّي لم أشعر أنّهما تتجاوبان، كأنني لست نفسي، بل كـــان هنـــاك شخص آخر انتعلَ قدمَيّ، وسار بهما تجاه الحائط؛ شخص آخر غريـــب عني اندسّ في ثناياي منذ تلك اللحظة، لحظة التحـــوّل، وأصـــبح هـــو المتحكّم فيّ، مبعداً أي أثر لذلك الذي كانَ يمثّلني "عامر"؛ ليحول دوني ونفسي من الحياة داخل جسدي. منذ تلك اللحظة اندثر عامر داخـــل ضلوعي، وتقمّصني ذلك الآخر الغريب، البليد، المتعجرف، والتائه.

يداي الرفيقتان تحمّلتا القيد الذي التفّ حولهما بقسوة، وعيناي اللتان غابتا خلف غطاء شُدّ بقوة حولهما، لم تأبها بالظلام الذي بات يلفّهما، وجسدي الصغير لم يعد يرتعد خوفاً، فقد أصابته حالة مـــن السّكينة الغريبة. لكنّ ذهني كان يحوم حول درج البيـــت، وصـــورة أبـــي يجرّ قدميه على السبع عشرة درجة، التي أحفظها غيباً، وهـــو يلقي الخبر على مسامع أمّي ووجهها المتقع، وصـــوتها المتهـــدج، ورأسها الذي يهتز توتّراً وغضباً. كان ذلك يحتلّ خلايـــا دمـــاغي،

ويجبرني على استعجال اللحظة لكي أعود ممتطياً درجات البيت معلناً عن عودتي سالماً.

لم أعرف إلى أين جرّني ذلك الممسك بذراعي، إلا أنني أدركت أننا ندخل في إحدى الدوريات، إذ أُجلستُ ورفيقيّ على أرضية الدورية، وأيقنت بعد لحظات أننا بدأنا بالتحرك، إذ بدأت الدورية تهتز من تحتنا، وبدأ الجنود بمزاولة هوايتهم بالركل والصفع على وجوهنا. كنت أسمع صوت زميلي "أيهم" باكياً، وكنت قد ميّزته من تلك الرنّة الحادة التي تطغى عليه، تلك التي كثيراً ما كانت موضوع تفكّه طلاب صفّه، لا سيّما عندما كان يقف لإلقاء قصيدة طُلب منّا حفظها غيباً. صوت بكائه أصابني بالاضطراب، وودت لو أصرخ به أن يخرس، ويتمالك نفسه. لكنّه لم يفعل، واستمر بالعويل، وصوته يطن في أذني مختلطاً بصوت الجنود يأمرونه بأن يخرس، ويقهقهون بصوتٍ عالٍ مستهزئين بنبرة صوته. كرهته في تلك اللحظة، وكرهت ذلك الخوف الواضح في نبرات صوته، وودت لو أنه لم يشارك في رمي الحجارة، وأيقنت أن المجموعات الضاربة كانت على صواب بأن تدقّق كثيراً قبلَ أن تقبل أيًّا منا بينها. إلا أنني فجأة أحسست بشفقة كبيرة عليه، وأصابني شعورٌ بالتعاطف مع رنّة صوته الحادّة، وودت لو أنّني أستطيع أن أخبره: كم أنا آسف لأني شاركت طلاب الصف الهزء من تلك النبرة، وأنني حقيقة أجدها عادية وطبيعية، وليس فيها ما يدعو للضحك. ووعدت نفسي، إن قُدّر لي الخروج سالماً أن أردع أي محاولة للاستهزاء منه.

توقّفت الدورية لحظات، أدركت فيها أننا ننتظر أن يُفتح لنا باب المعسكر. تذكّرت أن هذا المعسكر يجاور بيت جدي لأمي،

وأنا حين كنا نزور جدي في بيته، كان يحدّثنا عن سماعه صراخَ المعتقلين أثناء التحقيق. كنت وقتها أنظر إلى ذلك المعسكر وكأنه بيت الساحرة التي تختطف الأطفال، وتقوم بطهيهم ومن ثم تأكلهم. وكثيراً ما حلمت بأن أكون ذلك الفتى الذكي، الذي يخدعها ويوقعها في إناء الطبخ لتموت حرقاً. كنت أعتقد في حينها، أنني بعيدٌ كل البعد من أن أكون أحد نزلائه، بل كنت متأكداً أنني لن أطأه بقدميّ، وها أنا الآن أنتظر إشارة الدخول من الحارس؛ كي أكون أحد هؤلاء النزلاء. هل هذه هي فرصتي بأن أحقّق حلم الطفولة؟ هل سأتمكّن من دفع سجّاني إلى قدر يطهو به زملائي؛ ليحترق ويموت وأخرج أنا منتصراً، فرحاً بنجاتي؟

في الحقيقة لم تسر الأمور كما تمنّيتها، بل بالعكس تماماً، كنت أنا من وقع في قدر الماء ولم أخرج منه منذ أن أُدخلت إلى تلك الغرفة الصغيرة. تلك التي لا تزيد مساحتها عن مترٍ مربّع. أعرف الآن لماذا لُوّن حائطها بلونٍ أصفر شاحب، ولماذا كان لها سقف يطاله رأسي الصغير رغم قصر قامتي، ولماذا لم يكن لها إلا فتحة صغيرة في الأعلى، تتسلّل منها حزمة نور خجولة، بالكاد تكفي لاستكشاف أصابع القدمين المتكوّمتين إحداهما فوق الأخرى لضيق المساحة. وأدرك الآن، كما أدركت حينها، أن جلوس القرفصاء لساعات طوال وحدك محدّقاً إلى أصابع قدميك، هو أشد أنواع العقاب، فبالإضافة إلى الخوف والرعب الذي يعتريك من القادم، ليس لك سوى أن تتأمّل أصابع قدميك، لتدرك كم هي بشعة وقذرة، وتصبح هي عدوتك الأولى. تصبح هي من يستهدفك، ومن ينغّص عيشك، وتتخيّلها تطول وتطول لتصل إلى عنقك فتطبق عليها كاتمة أنفاسك!

والأسوأ من ذلك، أنك لا تستطيع أن تخفيها لتختفي معها إرهاصاتك، وتبقى أمامك كلما قررت أن تفتح عينيك؛ لتستقبل بعضاً من خيوط النور الضئيلة.

استمر وجودي في هذه الغرفة وقتاً لا أستطيع التكهّن بمقداره، إذ إن النور لم يكن كافياً لتمييز الليل من النهار، ولكن ما أذكره جيّداً الآن، أنني كدت أغيب عن الوعي قبل أن يُفتح باب الزنزانة، ويسحبني صوت قميء تنبعث منه رائحة توحي بشرّ قادم لا محالة، ويأمرني بمرافقته إلى تلك الغرفة، التي أُخضعت فيها لأول اكتشاف لخطورة جسدي. هنا، في هذه الغرفة الخانقة، انتهى زهوي باخضرار عينيّ، ولون بشرتي، وحجم قدميّ. وأصبح جسدي قبيحاً، تحوّل أسمالاً بالية رثّة، تمنّيت طوال عمري القصير أن أستبدل بها ثياباً أخرى جديدة ونقية. في هذه الغرفة الضيقة الخانقة، اغتصبني ذلك القبيح أورلي!

كانت المقاعد في تلك الغرفة صغيرة، بالكاد تتسع لطفل لا يتعدى العامين. أمرني ذلك الصوت بالجلوس على أحد المقاعد، لم ألتفت إلى وجهه، فقد كانت قوة الضوء في غرفة التحقيق قد أعمت بصري. كما أنني كنت أرتعب خوفاً من الداخل لأن عالمي الصغير الآمن، الذي حمل فيه أبي كل همومي ومتاعبي التي لم تتعدّ ثقل حقيبتي المدرسية، قد تهاوى فجأة. كما أن كآبة تلك الغرفة، ممتزجة بخوفي وقسوة ذلك المحقق المنبثقة من ابتسامته الصفراوية، وصوت أمي الباكي يتردّد في أذني، كل ذلك زاد من سطوته عليّ فبدوت ضعيفاً متهالكاً، وسمحت لذلك الآخر أن يرتدي جسدي في لحظة التحوّل، ويسحبني أنا "عامر" إلى الأعماق. منذ اللحظة الأولى لدخولي تلك

الغرفة الكئيبة، سلّمت نفسي له، واستكنت.

راقبت ما حصل، وأنا قابع بخوف دون حراك على ذلك المقعد الصغير، مراقباً أصابع قدميّ، متمنياً أن يتركني ذلك الحقير دون أن اضطر لمواجهته بالرد على أسئلة عليّ، وكان قد أمرني بالإجابة عنها: من خطّط؟ من كان معك؟ من تعرف من المجموعات الضاربة؟ أين يجتمعون؟

وبعد سلسلة من إجابات مبهمة لم تشفِ غليله المتعطّش لمزيدٍ من إذلالي، يضغط بيده على جرس مثبت أمامه، ليُفتح الباب بعد أقل من دقيقة، ويدخل "أورلي" النتن. لم أتمكّن من التفريق بينهما، فكلاهما له الرائحة نفسها، ونكهة الصوت القميء؛ يسحبني من مقعدي الصغير ويدفعني باتجاه الحائط. أرقب رأسي وهو يرتطم بالحائط الإسمنتي، وأشعر بألمٍ يخرج من دماغي ويرتطم بكل ذرّةٍ في جسدي، ويصل إلى أمعائي فأراها تتلوى كالأفعى أمام عيني، يغلّفها سواد قاتم تدور في فلكه بعض الدوائر المضيئة. يعيد الكرة مرةً أخرى، يصبح الحائط أكثر قسوة، ويصبح رأسي أكثر ليونة، أغيب عن الوعي متعمّداً، أقرر أن أنسحب من نفسي، وأترك له جسدي برفقة شخص آخر لا يهمني. أراه يجره أمامه كالعجل المذبوح. يلقيه على الأرض ويجرده من ملابسه جميعها، ذلك السافل الذي لم أنسَ ملامحه طوال عمري القصير، ملمح شيطاني يعجّ برائحة حقارة بشرية فريدة من نوعها، وينقض على الجسد الملقى أمامه ليهتكه. أما أنا "عامر" فقد استكنت وراء ألمي، ورحت أرقب كيف يعبث ذلك البشري الحقير، في ذلك الآخر الذي استولى على جسدي دون أن أنبس ببنت شفة.

وكأنني لم أفهم ما أقدم عليه إلا بعد أن انتهى من فعله، لم أدرك أن هناك من اقتحم جسدي عنوة، وأمعن في انتهاكه والعبث بـــه. لم أدرك حجم فعله إلا بعد أن سمح عقلي لأحاسيسي أن تصـــل إليـــه ليحوّلها عبارات مفهومة. لقد اقترف هذا الحقير فعلاً شائناً بحقي. يا للهول! يا للفاجعة! أين لي أن أدفن وجهي، وأختفي إلى الأبد، كيف لي أن أمحو اللحظة وأعاود الخروج من أمعائي صافياً معافـــىً!

ما إن انتهى الحقير من فعله، وانسحب من جسدي حتى استدار إلى جهة وجهي المختبئ وراء وجه ذلك البليد الذي استوطني، ومن ثم حدّق مليًّا إلى عينيّ وبصق على الأرض مستهزئاً بخفايا جســـدي، قائلا :ابعث تحياتي لأمك، وقُلْ لها: إن هذا جزاء من يعبث بأمنـــا، وأن عليها أن تعتني بك أكثر، ربما في المرة القادمة أتمكـــن مـــن أن أستمتع بجسدك أكثر!.

لم أدرك ما حصل لي، إلا بعد أن استفقت في زنزانتي الضـــيقة، كنت قد فقدت الوعي، ولم أشهد لحظات انتقالي إلى داخل الصندوق الأول حيث تنتظرني أصابع قدمي من جديد. فتحت عـــيني لأراهـــا تحدق إليّ، ترتفع في وجهي مؤنبة، لائمة ضعفي وانسحابــــي، بـــل أكثر من ذلك، فقد رأيتها في لحظة واحدة، تكبر لتصبح بحجم وجـــهِ أبـــي الذي كان غاضباً، ولكنْ متأفّفاً كعادته، لاعناً اليوم الذي رأى فيه وجهي، مؤنباً ضميري بأنني قد جلبت له العار، وأوقعت نفسي في ما لا يُحمد عقباه. فجأة ودون وعي، بدأت بالصراخ لاعنـــاً القـــدر الذي تخلى عني في تلك اللحظة المقتطعة من عمري القصـــير، لحظـــة اكتشافي أنني فقدت عذرية روحي، وأن جسدي قد انفصل عني تماماً، وأصبح وعاءً لروح أخرى لا تشبهني.

صرخت بكل ما أمتلك من قوة إلى أن أنهكني الصراخ، واجتاحتني موجة بكاء هستيرية أنهكتني إلى أن أغمضت عينيّ عن العالم كله. حين استيقظت، أدركت أنني كنت قد متُّ داخل جسدي، ولكن دون شهادة وفاة رسمية، أنا منذ تلك اللحظة لست أنا، بل شخص آخر، لا أعرفه ولا أرغب في معرفته؛ فهو ملوّث قذر؛ هو لا يشبهني، بليد، متعجرف، وغاضب. أما أنا الصغير المدلّل، الممتلئ بحب الأهل والأصدقاء، فلا أزال أقبع في سريري مختبئاً من نداء أمي الصباحي مذكّراً باقتراب موعد المدرسة.

خرجت من المعتقل بعد أيام عدة، بعد أن تـــدخّلت المدرســـة وعدد من الوجهاء كان لهم بعض الثقل لدى المحتل، وكان أبـــي قد استعطفهم كي يتدخّلوا لإنقاذي. كل ذلك بعد أن تأكـــد "أورلي"، الذي استمتع بلحظات من عمري لإرضاء ساديته في جسدي، أنـــه فضّ بكارة روحي.

عدت إلى البيت لأواجه همّي الأكبر في ملاقاة أبـــــي وأمـــي. صعدت درجات البيت السبع عشرة ببطء، و لم أندفع باتجاه البـــاب الرئيس، بل تباطأت قليلاً قبل أن أقرع الجرس، وكما توقّعت تمامـــاً، لاقاني أبـــي بوجه متجهّم مليء باللوم وكلمات تضربني كالسياط.

- كثيراً ما حذّرتك و لم تســمع. أرأيـــت؟ تلـــك هـــي النتيجة!.

لم أرد بأي كلمة، بل نكّست رأسي وسمحت للعاصفة أن تمر، وتحاشيت النظر في وجهه، إذ إن الآخر الذي سكنني كـــان غاضـــباً حانقاً يتململ كي ينفجر غضباً في وجه أبـــي. أما أنا، فقـــد كـــان يعتريني شعور بالخجل من نفسي التي انسحبت و لم تقم بـــأيّ فعـــل مقاوم.

لم تكن حالي في مواجهة أمي أفضل كثيراً، إلا أنني في اللحظـــة التي رأيتها فيها، كان لديّ رغبة في الاندثار داخل رحمها من جديد، وكأنني كنت أتمنى أن تمحي تلك اللحظة من حيـــاتي، وأن أعـــود لأولد من رحمها جديداً معافـــى.

رغم ذلك الإحساس، إلا أنني عجزت حتى عن تقبيلها، وارتميت على المقعد منهكاً ممزقاً، وأغمضت عينيّ في محاولة لإنهاء المشهدِ سريعاً. طلبت من أمي أن تتركني أستريح قليلاً، بعد أن أمطرتني بكثير من الأسئلة الصعبة، ووعدتها أنني سأحدثها عمّا جرى معي فيما بعد.

استيقظت صباح اليوم التالي. ذلك المنسحب من جسدي هو الذي أنقذني، أشعل في رأسي ناراً صعب إخمادها. ألم يكن أبي هو السبب في ما جرى لي. لو أنه توقّف مرة عن معاملتي كطفل صغير، لما انقدتُ لجلادي كخروف يُساق للذبح دون سؤال. لو أنه كفّ عن ملاحقتي وحَمْل حقيبتي المدرسية؛ لما عجزت عن حمل جسدي على مقاومة الفعل المشين الذي انتهكه. وأيضاً، أليست أمي بدموعها وتوسّلاتها مسؤولة عن ضعفي أمام جلادي؟ هما سبب مأساتي، ومنذ تلك اللحظة، لحظة سقوطي، لن يهنأ لهما عيش.

امتدت يداها تداعب شعري وتحاول إيقاظي. فتحت عيني لأشاهد وجهها المهموم المثير للشفقة، واشتطت غضباً. دفعت يدها عن شعري بقوة، وصحت بها غاضباً أن تكف عن تدليلي. انسحبت هي الأخرى غاضبة وتمتمت بكلمات لم أفهم معظمها، لكني أقدّر الآن أنها كانت تنعي حظها السيّئ كالعادة.

منذ ذلك اليوم لم أستطع الوصول إلى سلام في علاقتي بكليهما، بل كانت الأمور تزداد تعقيداً وتتراكم سوءاً، إلى أن وصلت إلى بداية النفق. لا أدري الآن إن كنت قد تركت لهما رصيداً صغيراً، أو ربّما بعضاً من ذكريات جميلة، تؤنس وحشة ليلهما التذكّري الطويل، أم أن كل ما تركته ورائي، هو إحساس عميق بالذنب مختلط بالألم؟

* * *

في لقائي الأول بزملائي في المدرسة، حظيت باستقبال الأبطـــال، طاف بـــي زملائي ساحات المدرسة هاتفين ببطولتي، ورغم أنني كنت أذوب داخل خجلي من نفسي، إلا أنني تساوقت مع الموقف، وارتديت وجهاً يوحي بالأهمية، وتقبّلت التهاني بخروجي من المعتقل بطلاً.

لكني، في لحظة التقاء عينيّ بعيني "أبيهم" انتفضــــت، وأشـــحت النظر عنهما سريعاً، تذكرت بكاءه داخل دورية الاحتلال في طريقنا إلى الســجن، وعادت إليّ مشاعر الهزيمة والإحباط، وبدأت بـــالتملّص من المحيطين بـــي متذرّعاً بإرهاق أصابني نتيجة اعتقالي.

لمع في رأسي فجأة سؤالاً حول ما حلّ بـــأبيهم في التحقيـــق؟ وودت لو أنني أمتلك جرأة للاستفسار منه انْ كان تعرّض لمثل مـــا تعرّضت له، إلا أنني استبعدت ذلك سريعاً وقررت أن لا أكشـــف نفسي أمامه.

بعد انتهاء الدوام، حرصت أنا وسعد على أن نغادر في عجالة؛ كي لا نعلق بأيٍّ من الأسئلة التي ستلاحقنا من زملائنا حول تجربتنا في المعتقل. بالرغم من أننا لم نتبادل الحديث معاً حول ما جرى لكلٍّ منا في المعتقل، إلا أن شيئاً ما كان يبدو مفهوماً بيننا، وكأن حديثاً ما كان قد قيل وانتهى.

وبدل أن نعرّج على مقهى البلد، حيث تجتمـــع المجموعـــات الضاربة، اتّفقنا أن نبدأ مغامرتنا الأولى في إثبات رجولتنا، وتوجّهنـــا إلى بقّالة "أبو جورج" في ميدان الساعة، وابتعنا زجاجة شراب الأولى ذات الثلاث سبعات.

كنا كثيراً ما نسمع عن هذا المشروب من أفـــراد المجموعـــات الضاربة، إذ إنهم كانوا يتغنّون أحياناً بليلة قضوها بصحبة زجاجـــة

الثلاث سبعات. لم تكن لدينا الجرأة في أن نشاركهم لياليهم تلك، كما لم تتم دعوتنا لصغر سنا، إلا أنه في هذا اليوم كان لدينا قرار جازم بأن الوقت قد حان كي نجرّب ذلك المشروب. ابتعنا زجاجتنا، واتّجهنا إلى تلة المصيون، التي كانت تُعتبر منطقةً بعيدةً عن المدينة، ولا يصلها إلا من يود الاستفراد بعمل ما بعيداً عن الأعين.

هناك على تلك التلة، ابتدأت صداقتيّ العميقة بزجاجيّ، إذ منذ الحسوة الأولى شعرت بعبق رائحتها القوية تغزو أنفي، ودفء ساحر ينسحب من حلقي ويصل إلى أمعائي فيخمد فيها ناراً متّقدة، ناراً ملتهبة في أعماق أعماقي. وكلما ازددت منها حسواتٍ أخرى، تنطفئ ثورة غضب تشتعل في داخلي، ويرتخي كل عضو من أعضاء جسدي؛ يداي تصبحان أكثر انسياباً، وفمي يصبح أكثر ابتساماً؛ وعالم آخر يتراءى لي، عالم ضبابي جميل لا تشوبه شائبة، ولا يعيش فيه "أورلي" النذل. عالم لي أنا وحدي، أتربّع فيه على القمة، أتحدّث فيه بطلاقة وأجول فيه جولات بطولتي المبتكرة؛ عالم أحتله وحدي، لا أشعر فيه بسطوة أبي ولا بدموع أمي؛ عالم تتجمع فيه كل أحاسيسي في الأفق أمام عينيَّ تماماً، ولا تهبط إلى أعماقي، تتجلّى جميعها أمامي وهي تسبح في نقاء ساطع.

عشت هذه اللحظات الأولى لمعنى الغياب بفعل الزجاجة، وبرفقة صديقي "سعد"، الذي بدا وكأنه لا يعيشها بالانعتاق نفسه. كان لا يزال يقف على أرض الواقع، و لم يغادرها مثلي، وانتبه لأثر الزجاجة المدمر؛ فأخذ يؤنّبني، ويذكّرني بأنني لا بدّ أن أستيقظ من غيابي، وأن أعود إلى وعيي، ما أثار حفيظتي، وبدأت بمهاجمته وكيل التهم بحقه، إلا أنه لم يبالِ، وأخذ يجرني من يدي إلى أن

أوصلني الشارع العام، وهناك أوقف سيارة وحملني معه إلى بيته، حيث استلقيت على فراشه لأنام نوماً عميقاً.

استيقظت من نومي بعد المساء، وقد كبر رأسي ألماً، واستوطنني صداع شديد لم يسكته أيّ من مسكّنات الألم. لملمت نفسي، ورافقني سعد إلى البيت حيث ينتظرني عتاب شديد من أمي وتبرّم وصراخ من أبي.

بعد تلك الليلة، ليلة الخروج من المعتقل، أصبح هم أبي الوحيد هو تسفيري خارج البلاد. عمل جاهداً على أن يجد لي قبولاً في إحدى الجامعات في الولايات المتحدة الأمريكية، وأبدى استعداده كالعادة، بكثير من التذمر، لتمويل هذه الدراسة، التي كانت ستكلف العائلة ما لا تحتمله ماديًا، وكان ذلك بالضرورة يعني أن تُعلن حالة تقشّف تشمل المصروف الشخصي لـ "أمل"، التي كانت قد التحقت بالجامعة، وعدم النظر في أيٍّ من طلبات أمي بتجديد الأثاث، والتغاضي عن تجديد السيارة الصغيرة القديمة، التي يمتلكها أبي، بالإضافة إلى اقتطاع جزء كبير من معاش شقيقتي سندس، التي كانت قد أنهت تعليمها الجامعي، وبدأت بالعمل مدرّسةَ رياضيات في مدارس وكالة الغوث. أما أنا، فلم أكترث لكل ذلك، فقد أوهمت نفسي أن شفائي من الآخر هو في هرولتي إلى الأمام، غاضًّا النظر عن أيّ معيقات أو إشكالات ربما تترتّب على ذلك. أردت بكل إحساساتي أن أغادر موتي، علّني أستطيع أن أقوم منه كما قام المسيح.

جهّزت أموري كلها للمغادرة. كنت أحلم بالحرية المنتظرة في بلاد الحرية. أردت الهروب من ذلك المتربّص في داخلي، وكأنني كنت أنوي إلقاءه في النهر *الفاصل* بين عالمي والعالم الآخر، عالم الحرية. ورأيت نفسي مراراً في حلم النهار والليل أعود بعد أن تجدّدت خلايا جسدي المنتهك، لأقفز درجات البيت تماماً كما

حلمت قبل أن يتم اغتيال جسدي، وأفتح باب البيت الرئيسيّ منادياً أمي بكل ما أوتيت من قوة، وأندفع باتجاهها متمرّغاً على صدرها، وكأني لم أغب عن نفسي مطلقاً.

خرجت وأبي من البيت؛ لا يزال أبي مصرًّا على الفعل نفسه، يحمل حقيبة سفري ويتّجه إلى "التاكسي" الذي ينتظرنا لكي يقودنا إلى مطار اللد، الذي كان الاحتلال يسمح لسكان الضفة الغربية وغزة باستخدامه للسفر وقتها. ألتفتُ قبل أن أصعد إلى التاكسي ورائي، لأرى أمي، التي أعلم كم قاست من أجل أن تراني سعيداً معافىً، ودموعها تخترق وجنتيها؛ فيعتصرني الألم وأنا أنظر إليها مودّعاً. أسمع صوتاً يخرج من داخلي يردّد لحناً أعرفه جيّداً، أغنية غنّيتها أنا و" أمل" أيامَ كنا نتقاسم أسرارنا الليلية، يتعالى الصوت في رأسي، تلحّ تلك الأغنية على أذني "عهد الله ما نرحل، عهد الله نجوع نموت ولا نرحل..."، تبدأ شفتاي بالتمتمة، ويعلو صوتي مردّداً الأغنية متناغماً مع ما يتردّد داخلي. ينظر الجميع إليّ بغرابة، تزداد دموع أمي انهماراً، ويستنكر أبي فعلي ويأمرني بالصمت.

– بدون فلسفه فاضية! نحن الآن سنتجه إلى المطار، وإن قمت بأيّ فعل أحمق، منعوك من المغادرة.

أنظر إليه راغباً في الاستمرار بالغناء، ولكن رغبتي في الرحيل هارباً من عدو سلبني نفسي واستقر هو داخلها، كانت تلح عليّ وبشدة. صمتّ مستجيباً لطلب أبي، وأقلّنا "التاكسي" إلى المطار.

كنت طوال الطريق أنظر إلى وجهه. أدركت لوهلة أنني لم [illegible] أن خرجت من المعتقل!

يا إلهي كم تغيّر وجه أبـــي! لقد أصبح أكثر تجهّمـــاً وعينـــاه تنظران بانكسار مَن أصابه مصاباً جسيماً. كيف أنني لم ألحظ ذلـــك من قبل؟! كيف لي أن أتجاهل عينيه المكسـورتين طوال هذا الوقـــت! كيف لي أن أتسبّب له بكل هذا الألم! وكم كان حظّه سيئاً عنـــدما قرر أن يتبنّاني كمشروع حياته الأهم! وددت لو أنني أتمـــرغ علـــى جسده، ورغبت في أن أقول له: كم أنا آسف على مقدار الألم الذي يحمله تجاهي. وددت لو أطلب منه الغفران، وأن أعده صادقاً أن كل شيء سيصبح أجمل، لكني لم أجرؤ على ذلك، لم يكن أبـــي مطواعاً لاستقبال الحب كما معظم الآباء العرب، يغدقون كل ما يمتلكـــون على أبنائهم ويقتّرون في إظهار بعض من مشاعر الحب يخزّنونهـــا إلى ما قبل وفاتهم بقليل. ليت أبـــي سمح لي بلحظات من الحب حينها، ربما كنت لم أصل إلى موتي المحتّم مبكراً.

عادت بـــي الذاكرة إلى تلك الأيام التي حمل بها أبـــي حقيبتي المدرسية، وحاولت أن أسترجع قسمات وجهه حين ذاك، ولدهشتي، رأيت وجهاً مرحاً يشع بنظرات طفولية شقية، وأتاني صوته المـــرح وهو يلقي التحية في كل صباح على أحد أصـــحاب الحوانيـــت في وسط البلد، الذي كانت تربطه به صداقة قديمة تعود لأيام الطفولـــة. كان أبـــي يتعمّد أن يعليَ صوته كلما مررنا من باب حانوته، ليقول له: "صباخ الخير يا مضحكة".

ويرد صديقه بابتسامة عريضة: "صباح الخير أبو عامر"، كنـــت أستغرب كيف لا يستفزه ذلك القول، بل على العكس تماماً، كـــان يبدو وكأن كلمات أبـــي تستهويه. شكّل هذا المشـــهد الصـــباحي جزءاً من سوريالية الصورة التي رسمتها في أعماقي لطفولتي. الغريـــب

أن أبي كان يبدو في تلك اللحظات، وكأنه يحتفظ ببعض من بقايا طفولة لم يسمح لها أن تكبر معه، بل أنهَيَت قسراً واستبدل بها رجلاً كان لا بدّ له من أن يتحمل مسؤوليته تجاه والديه مبكراً. إذ إن عائلة أبي كانت تعتاش على ما تزرعه جدتي في حديقتها من خضار تقوم ببيعها لأهل القرية، والقرى المجاورة، وكان لا بدّ لأبي أن يكبر على عجل، مختصراً سنوات من شقاوة الطفولة البريئة؛ كي يريح يدي جدتي من شقاء الفأس؛ ولهذا يبدو أن بعضاً من شقاء الطفولة كان لا يزال قابعاً في أعماقه، وأنه في لحظات، كان يغفل فيها عن عمره، يأذن لها بأن تظهر لتكشف جزءاً ممّا يحجبه من نفسه عنا - نحن أبناءه - خوفاً من أن تهتز هيبته قليلاً.

* * *

وفي هذه اللحظات، لحظات اتصالي الروحي معـــه، وددت أن أعترف له بما جرى لي في المعتقل، أن أقدم له اعتذاري، أن أدّعي أنّني لم أخذل نفسي، وأنّني قاومت فعلهم الدنيء في جســـدي؛ ولكـــنّني تراجعت بعد أن أعدت النظر إليه لألحظ تغيّرا طرأ على ملامحه، ليبدو من جديد قاسياً، ثم تتبدل بذلك صور من الماضي تلاحقني وأنا أتأمّل وجهه.

يأتي في المســاء عائداً من جولته اليومية مع أصـــدقائه، صـــوت خطواته وهو يصعد الدرجات السبع عشرة التي عددتها أنا ودقـــات قلبـــي كلما حان موعد قدومه إلى البيت، تصم أذنيّ. قبل أن يفـــتح الباب، تجول شقيقاتي بأنظارهنّ في كل ركن في البيت؛ ليتأكدن أن كل شيء في مكانه، وأن ليس هناك ما يستدعي أي تعليق منه يـــثير حفيظة إحداهن. نجلس جميعاً هادئين، وكأن الحال هكذا دائماً، رغم أن البيت كان قبل قدومه يعج بالصراخ والمشاجرات التي تنشب بين فينة وأخرى. لن أنسى ذلك اليوم الذي تعمّدت فيه الذهاب إلى النوم باكراً؛ كي لا أضطر لمواجهته بعـــد أن حصـــلت علـــى شـــهادتي المدرسية. كنت آنذاك في الصف الخامس، و لم تكن علاماتي سيئة بل كانت في الحقيقة بمستوى "جيّد جدًّا" ولكن ذلك لم يرضِ أبـــــي. خفت ليلتها أن ينالني منه عقابٌ شديد؛ فادّعيت النوم قبـــل مجيئـــه. ولكنه كان ينتظر هذه اللحظة بنفاد صبر. سمعته ينادي أمي سائلاً:

- أين الأفندي؟

ترد أمي بصوت متهدِّج:

- نائم منذ مدة، أرجوك أن تدعه ينام، والصباح رباح.

أسمع كل هذا، وأنا أتدثر تحت الغطاء متكوّماً على نفسي، محاولاً طمأنتها بأنني سأملص من الحساب هذه الليلة. لكنّ أبي لم يكن من أولئك الصابرين، بل كان يصر على مواجهة الأمور دائماً وفي اللحظة نفسها.

يتوجّه إلى مكان نومي، وفي ثانية واحدة ينتزعني ممّا أنا فيه صارخاً غاضباً، مذكّراً بالمبلغ الذي يدفعُه سنويًا قسطاً لمدرستي المميزة. وأنا لا أملك سوى البكاء والتوسّل بأن يتركني من يده. تقف أخواتي حولي مستنكرات، أرى دموع "أمل" تترقرق على وجهها، وأرى "سماح" شقيقتي الكبرى، التي يخصها أبي بالثقة، تسحبني من يديه، وأمي تصرخ في الخلف محاولة إنهاء الموقف:

- مالك يا زلمة، الولد راح يفرط بين إيديك... قلت لك الصباح رباح... ما في فايدة ولا بتسمع ولا بترد!

في الحقيقة لم يكن أبي يشكّل أي خطر جسدي عليّ، فهو لم يكن قادراً على إيذائي، لكني لم أكن أفهمه وأفهم أسباب غضبه حينها. ومع ذلك كنت آخذ تصرّفه على محمل الجد، وأخشى غضبه بشدة حتى بعد أن كبرت، وبدأت أفهم أسباب ضيقه الدائم من كل شيء في حياته.

فقد تربّى أبي أيضاً في البوتقة نفسها التي وضعني فيها، بوتقة الشعور بمسؤوليته باعتباره ذكراً وحيداً، عليه مهام جسيمة، أولاها إنهاء معاناة والدته التي أحبها كثيراً، وكانت قد توكّلت بمهمة إطعام العائلة. وثانيتها، الاهتمام بأبيه الذي كان لا يقوى على العمل الشاق

بسبب بنيته الضعيفة. كنت أنظر إليه أحياناً، فتقفز تلك اللوحة الشهيرة لـ "سليمان منصور" التي تجسد فلسطينيًّا يحمل القدس على ظهره أمام عينيّ. ذلك هو أبي، الذي منذ أن وعيت على هذه الدنيا وهو يذكّرني بالحمل الملقى على ظهره، فهو من أنجب خمس إناث، وولداً وحيداً رأى فيه أملاً في استكمال مسيرة العائلة، فاختار أن لا يحمّله أي حمل، بما فيه حمل حقيبته المدرسية. ذلك هو أبي المتطوّع لحمل الهموم والضحيّة الطوعية، الذي قدم نفسه قرباناً لعائلته، وبالتحديد لي أنا. وللأسف لم أسعفه في إنزال شيء من هذا الحمل حتى بعد موتي الأخير.

* * *

أقف على باب المطار، ألوّح بيدي، وأودّع ذلك الوطن وتمتلكني غصة، وسؤال يتردّد في رأسي "هل أراه ثانية؟ وأي فارس سأكون، وأي حصان سأرتاد عائداً إليه، ومتى؟ هل أعود إليه من بوابة غرف التحقيق في مطار بن غوريون؟ أم سأدخله من مطار اللد، حيث يعلن القبطان وصولنا إلى أجواء فلسطين، فأهبط فيه فرحاً وتنتابني غصة الابتهاج، برؤية علمه يرتفع على ناصية تزين مدخل العبور إلى أروقة المطار؟ هل أراه سالماً منعماً وغانماً مكرّماً؟ هل أراه في علاه قاهراً عِداه؟

ظلت تلك الأبيات ترافقني طوال الطريق، داخل الطائرة: هل أراك، هل أراك، سالماً منعّماً وغانماً مكرّماً، هل أراك في علاك تبلغ السماك تبلغ السماك، موطني، موطني.

كانت تلك الرحلة، أولى رحلاتي على متن طائرة، تلمّست المقعد الذي خُصّص لي، وتفقّدت كل ما يحيط بي، وبعد أن راقبت من كان يجاورني في المقعد، تمكّنت من ربط حزام الأمان. أصابني الهلع بعد أن قامت المضيفة بتأدية التعليمات الخاصة بأوقات الطوارئ، وانكمشت في مقعدي محاولاً الوصول بنفسي إلى السكون. إلا أن المتربّص داخلي، لم يتركني أنعم ببعض الراحة. ظل يوقظني ويذكّرني بتلك الغصّة التي تسكن حلقي وتدفعني للتجشّؤ. أخجل من نفسي، وأنظر حولي محاولاً استكشاف وقع تشجّئي على من يجلس بجانبي. استرعى انتباهي حصوله على كأس من

الشراب. رغبت بشدة أن أحتسي كأساً، ربما يخفّف من حدّة الغصّة التي تنتابني.

استدرت نحوه، وكان رجلاً له من العمر ما يقارب السبعين. ابتسمت بخجل وبلغة إنجليزية متقنة سألته:

- كيف لي أن أحظى بكأس مثل هذه؟

ابتسم وأجابني بلطف:

- سأستدعي المضيفة؛ لتأتيك بواحدة.

طوال الطريق لم نتوقف أنا وهو عن استدعاء المضيفة، واستأنست أنا أمر الشراب، ثم استرخيت تماماً، وشعرت لوهلة أن ذاك المتربّص بداخلي قد استرخى أيضاً، وخفّف من حصاره لي، وبدأت أشعر بخدر لذيذ في أطرافي، واسترخيت كلّية، وانطلقت أرغي بطلاقة مع جاري الذي كان يبدي اندهاشه من كل كلمة أقولها، وكأنني قادم من بلاد الواق واق. واستمعت أنا وقع حديثي عليه، ولم أتوقف عن اختراع أحداث لم تحصل معي أبداً، وأنا أنظر إليه وهو يبدي إعجابه برواياتي، فأدركت أن لدي موهبة لا بد من أن أستغلها جيّداً، فالخيال كان إحدى ملكاتي، كنت أستطيع ربط أحداث لم أعشها أبداً، وأحوّلها إلى رواية كاملة، يصعب اكتشاف الكذب فيها.

حطّت بنا الطائرة في مطار نيو وارك. كانت تلك اللحظة، التي ما زلت أذكرها بوضوح، لحظة الانبهار. هنا عالم آخر، عالم كبير، كبير جداً. هذا المطار يساوي بحجمه مدينتي. أصابني ذهول مختلط برغبة في اكتشاف عالم جديد، وفي الوقت نفسه أصابني ارتباك من أن لا أستطيع التأقلم مع الحياة في مثل هذه المدينة الكبيرة.

هرولت وراء جاري في مقعد الطائرة، كي لا أضيع في متاهات الأروقة الكبيرة، ووجدت نفسي أقف في صفٍّ طويل يؤدي إلى شبّاك يجلس خلفه موظف الجوازات، راودتني أفكار كثيرة وأنا أقف منتظراً دوري. وبين ارتباكي من الإجراءات التي لا أعرفها في المطار، وقلقي ممّا ينتظرني خلف بوابة المطار، ظهر وجه آخر، وجه أعرفه جيّداً، أحفظه غيباً، تراءى لي أنني أراه يقف أمامي منتظراً دوره لختم جوازه. استرعى انتباهي في البداية كلمات عبرية سقطت على مسامعي كالصاعقة، وتلفتّ حولي لأراه، لم أعرف إن كان هو نفسه، ولكنّي كنت متيقناً أنني أسمع صوته، الصوت ذاته، اللكنة المتعجرفة ذاتها، الأحرف نفسها تخرج من الأنف وكأنه يستنشق كلماته ويستمتع برائحة النتانة تفوح منها، هو هنا، تمكّن من أن يلاحقني ويكشف هروبي الدائم من صوته المقيت. بدأ جسدي ينتفض، واحمرّ وجهي كلية وابتدأت يداي ترتجفان، و لم أعد أقوى على حمل نفسي. أغيب عن الوعي هارباً منه منسحباً إلى عالم لا يستطيع أن يطالني منه أي أذى.

أفتح عينيّ لأجد نفسي متمدّداً على السرير في غرفة صغيرة بيضاء وعينان مبتسمتان تنظران إلي. سألتني إن كنت أحس بالانتعاش، ومن ثم أخبرتني أنني وقعت على أرض المطار وأنا أقف في الصف منتظراً، ونصحتني أن لا أشرب كثيراً لأنني كنت ثملاً.

حاولت الاستفسار منها عنه، لكنها لم تفهم ما أقول، وظنت أنني لا أزال تحت تأثير الشراب. ساعدتني إحدى الموظفات بإجراءات الدخول، ورافقتني إلى حيث تناولت حقائبي وتمنّت لي إقامة سعيدة. غادرت المطار إلى حيث القطار الذي سينقلني إلى "ساوث

كارولينا"، حيث سأقضي عاماً كاملاً في رحاها. في الطريق كانــت أمنيات تلك الموظفة ترن في أذني مختلطة برائحة العفــن في كلماتــه العبرية التي لم أفهمها، وفي الوقت نفسه كان النشيد الذي حملته معي منذ مغادرَتي لا يزال يطن في أذني: "هل أراك، هل أراك، سالماً منعّماً وغانماً مكرّماً، هل أراك في علاك تبلغ السماك، موطني، موطني".

في الجامعة

كانت عليه عيناي في المساحة المترامية الأطراف لجامعة "ساوث كارولينا" جملة على البوابة الرئيسة، كُتِبت بكل اللّغات إلا العربيــة، ترحّب بالطلاب والزائرين. رغم أنني كنت في حالة مــن الإثــارة والفرح، إلا أن شيئاً من الحزن هبط سريعاً إلى ثنايا قلبــي. شعرت أنني أدخل إلى عالم لا يراني، عالم لا يعترف بــي. لا يقدر رحلــتي الطويلة من حيث أتيت ليرحب بــي على الأقل شــاكراً قــراري بالقدوم بلغتي أنا. أصابني حزن على أبــي، ذلك الــذي قــرر أن يصرف ما يملك، كي يرسلني إلى حيث لا يعترفــون حــتى بلغتــه. نسيت لحظتي هذه فور أن التقت عيناي عينيها – وبخجل شــديد – ألقيت التحية عليها، تلك المبهرة، لقد تصادف وجــودي معهــا في المدخل الرئيس. سألتها باستحياء إن كانت تعرف كيف يمكــنني أن أصل إلى دائرة الطلاب الأجانب. ابتسمت هي أيضاً، وأخــبرتني أن ليس لديها أي فكرة ولكنها عرضت المســاعدة بالاستفســار عــن المكان. كدت أطير فرحاً. أي حياة تنتظرني هنا؟ بالتأكيد أجمل مــن تلك التي غادرتها. سرت بمحاذاتها وأنا أرقب كل جزء مخفي ومــبرز من جسدها الجميل، وحاولت أن أبدأ الحديث معهــا فاســتجمعت قواي، وبلغتي المبهرة توجهت لها بالسؤال:

– هل أنت طالبة جديدة هنا؟

ردّت عليّ بالقول:

- نعم، التحقت بالجامعة في بداية هذا العام. ماذا عنك؟

(توجّهت لي بسؤال مشابه، يا لحظي الجميل! يبدو أنها ترغب بمتابعة الحديث معي).

رددت بسرعة وكأنني أستعجل سماع صوتها مرة أخرى:

- هذا يومي الأول هنا، في الحقيقة، لقد وصلت لتوّي من المطار.

ردت باستغراب بادٍ على محيّاها:

- من أين أتيت؟

رددت أنا بسرعة مفتخراً:

- من فلسطين.

صمتت. للحظات حسبتها قد كرهتني لأني من فلسطين، وأصابتني خية كبيرة، وندمت لأنني تفاخرت سريعاً بموطني الأصلي وأنّبت نفسي على غبائي وجهلي. كيف لم أفهم أن هذا المكان وقاطنيه لا يرحبون بنا بالطبع، وإلا سيكون هناك كلمة ترحيب باللغة العربية على الباب.

قطعت هي حبل أفكاري سريعاً وأعادتني إلى المحادثة التي انقطعت للحظات، وباستحياء بالغ، وجّهت لي سؤالاً غريباً:

- تعني من باكستان؟

أدركت أن كل ما افترضته كان زيادة في التحليل، وأنها لم تعرف أصلاً البلد التي أتيت منها، بل لتشابه اللفظ بالإنجليزية ظنت أني من الباكستان.

رددت أيضاً سريعاً:

- لا، لا هذا بلد آخر، أنا من البلد الذي توجد فيه مدينة القدس.
- ولكن أليس ذلك البلد إسرائيل؟

قالت "إسرائيل" دون تردّد أو إيحاء بأي خطأ في المعلومة التي تعرفها. التقطتّ الموضوع وبدأت بالتفسير وأنا أسير بمحاذاتها. كانت تصغي باهتمام إلى كل ما أقوله، وكأنها تكتشف عالماً آخر، لم تعرف عن وجوده. استمتعت برحلتي الصغيرة معها إلى أن وصلنا المكتب المطلوب. ودعتها بعد أن تعرفت على اسمها "سوزي" ومجال دراستها، إذ إنها تدرس إدارة الأعمال. ودّعتني بابتسامة، وكلمات بدت بسيطة، ولكني علقت عليها الكثير من الآمال:

- سعدت بلقائكَ، أراكَ لاحقاً.

اختار لي أبــي تخصّص الهندسة، ووافقت أنا دون نقاش، فقد كانت رغبتي في السفر ليس لها أي علاقة بمستقبلي الأكاديمي والمهني؛ كان كل ما يجول في خاطري هو الهروب. الخــروج مــن فوهــة الزجاجة والانعتاق إلى عالم آخر، ربما يحنو ويخلّصني مــن تفكــيري الدائم بلحظة التحوّل. أدركت كم كنت مخطئاً في عدم التدقيق بمــا سأدرسه بعد عدد قليل من المحاضرات، وعرفت منذ اليوم الأول أنني لم أخلق كي أكون مهندساً، فقد كنــت أصــلاً أكــره الفيزيــاء والرياضيات، و لم أكن دقيقاً في الحسابات والأرقام. أدركت أيضاً أن الهندسة رغبة أبــي وليست رغبتي أبداً، فكرهتها لدرجــة كــبيرة، وأصبحت تشكّل بالنسبة إليّ طوقاً آخر مسلطاً على رقبتي.

دخلت في مرحلة الانعتاق الأولى مــن طــوقي، وعمــدت إلى "تطنيش" محاضراتي، وبعد أن أصبح المكان أكثر ألفة وتعرفتُ إلى المحيط كله وما يدور في الجامعة من نشاطات، استأنست الخراطــي في الحيــاة الطلابية الصاخبة. اعتدت الذهاب إلى المقهى وخصوصاً أيام الســبت، التي كانت نهاية العطلات الأسبوعية، وهناك تعرفــت علــى أنــواع كوكتيلات الشراب كلها وكذا المشروبات الأخرى. كنت أعمــد إلى الشرب حتى تنتهي آخر نبضة إحساس بما يذكرني بالماضــي. وأطفــئ بكووسي إحساسي القاتل بالفشل، فأحلّق في عالم آخــر أكــون فيــه بكامل سيطرتي على ضعفي. أشعر بذاتي قوية وقادرة على كل شــيء، على القول والفعل، أقف أمام زملائي وزميلاتي بقامة عالية متحدثاً عــن

بطولات وهمية، وإبداعات أكاديمية غير حقيقيـــة، وأرقـــص بجنـــون وأضحك حتى تنهمر الدموع من عينيّ؛ وفجأة تتسلّل شرارة من الماضي وتخرج لتلدغني وتعيدني إلى الحقيقة المرة. إنني لست أنا، بـــل إن هـــذا الشخص الذي يقف مهرِّجاً بما يدّعيه ليس أنا، بل لا يمـــت لي بصـــلة، أعود وأتحسّس أعماق معدتي لأجده لا يزال قابعاً هناك، لا يقوى علـــى الحراك؛ ذلك القميء ما زال مختبئاً في أحشائي، ذليلاً منهزماً. تتحـــوّل دموع الضحك في عينيّ جنوناً غاضباً، فأجهش بعاصفة بكاء، تلفـــت انتباه كل من حولي، وأنتهي في كل مرة، محمولاً إلى غرفتي حيث أغرق في نوم عميق يمتد لساعات طويلة، وعندما أستيقظ، أقضي نهاراً كـــاملاً في محاولة لإسكات صداع يلازمني طويلاً.

عدت والتقيتها، "سوزي"، كانت تجلس مع إحدى صـــديقاتها في المقهى ذات مساء، تقدمت نحوها متوجّساً أن لا تعرفني وابتسمت بخجل مستفسراً:

- التقينا سابقاً، أليس كذلك؟

تلتفت هي وتتأملني ملياً، ثم تجيب بابتسامة ساحرة:

- طبعاً، أنت الشخص الذي يأتي من إسرائيل؟

وتردف سريعاً:

- عنيت من فلـــسطين، اعذر جهلي.

أرد بسرعة، غير آبه بخطئها:

- لا عليكِ، المسألة أكثر تعقيداً من أن تتذكري تفاصـــيلها، هل أستطيع أن أبتاع لك مشروباً؟

ترد بمرح قائلة:

- نعم، فودكا مع البرتقال لو سمحت.

أذهب سريعاً. أجلب كأسين وأحتل مكاني بجانبها، وقلبي يخفق سريعاً. أبدأ في حديث مسهب حول انطباعاتي عن الجامعة وأدّعي عدم معرفتي ببعض الأمور كي أتيح الفرصة لـ "سوزي" بالكلام، وعرض المساعدة وكي أحظى بإمكانية لقاء آخر يجمعني بها. ثم نتفق على موعد لنترافق إلى المكتبة كي نشتري بعض الكتب.

* * *

تصبح سوزي ملاذي وهاجسي وأحلامي وآمالي وكل ما أفكر فيه ليلاً ونهاراً. أستيقظ باكراً وأحرص على أن أمر من أمام مبنى الكلية التي تتلقى فيها محاضراتها، وأنتظر حتى يطل وجهها الجميل وأفتعل لقائي معها وأنا أحييها بابتسامة، وترد هي بابتسامة تبقى في عينيّ فلا تفارقني. وأظل طوال اليوم أبتسم لها وكأنها أمامي، فأبدو كالأبله أمام زملائي.

ولكني، في الوقت نفسه أداوم على تحطيم نفسي، وأسعى لذلك مثابراً على الفعل نفسه، فأتغيّب عن محاضراتي ومواعيد تسليم الواجبات المطلوبة، وبين الفينة والأخرى كان يطل عليّ وجه أبي من مكان بعيد في الذاكرة، فأشعر بغصّة في معدتي، وأستجمع نفسي وأجبرها، على السير باتجاه مكاتب الأساتذة؛ وهناك أذرف كثيراً من الدموع، وأسترسل بكثير من الروايات حول ظروفي الصعبة التي أجبرتني على التقصير تجاه دروسي. أنجح أحياناً في استعطاف بعضهم الأرق قلباً، وأفشل معظم الوقت في كسب تعاطف معظمهم، الذين على ما يبدو صادفوا حالات أخرى مشابهة، وتعلّموا من التجربة بأن لا يثقوا بروايات الطلاب، حتى لو كانت صحيحة.

أعود خائباً إلى غرفتي في السكن، وأتمدّد على السرير محدّقاً إلى السقف، متأملاً وجه "سوزي" الذي لا يفارقني، وأحلم أن أضمها بين ذراعي، وأن أبكي على صدرها حتى ينمحي جنوني وأستعيد عقلي. أظل أناغي اسمها ورسمها إلى أن يأخذني نوم عميق يمتد ليوم

آخر، أستفيق فيه على عالم يسير بـــي إلى الجنون.

توطّدت علاقتي بسوزي رويداً رويداً، وأصبحت تبدي اهتماماً بـــي بشكل خاص، ووافقت أخيراً علـــى أن أصـــحبها في موعـــد غرامي، و لم أصدق أنا عقلي، فقد تحقّق أخيراً واحداً مـــن أحـــلام راودتني، وابتسمت لي الحياة لأول مرة منذ فصل التحوّل.

توجّهت إلى موقع التسوّق القريب من الحرم الجامعي، وهنـــاك دخلت متجر بولو الشهير وابتعت قميصاً أخضر بلون عينيّ، وبنطالاً أسود وربطة عنق وحذاء رسميًّا أسود. كان أبـــي قد حوّل لي مبلغاً من المال لكي أدفع أقساط الجامعة، إلا أنني استخدمت جزءاً منه كي أبدو في قمة أناقتي لهذا اليوم، الذي سجّلته في ذاكرتي يـــومَ فـــرحتي الأولى.

هذا المساء بصحبة "سوزي" حلم جميل. نســـيت للحظـــات أحزاني كلها. نسيت كل ما يربطني بالألم، وأطلّت من حنايا قلبـــي فرحة خجولة تشق طريقها إلى شفتيّ؛ فترتسم عليهما ابتسامة تـــبرق بإشعاع إلهي. في هذا المساء شعرت أنني، ولأول مرة، أحبـــت الله، ووقفت على باب غرفتي قبل أن أغادرها متّجهاً للقـــاء ســـوزي"، شاكراً له أن يكون قد تذكّرني أخيراً بابتسامة حقيقية نبعـــت مـــن داخلي، و لم تصطدم بأيٍّ من منغّصاتي اليومية. وعدت نفسي أنـــني سأستمتع بلحظات لقائي بسوزي دون أن أسمح بمـــرور أي عـــابرة تكدِّر أمعائي، وأنني سأرتشف هذا اللقاء برويّةٍ وتـــأنٍّ، وسأعيشـــه لحظة بلحظة، كما لم أعش يوماً أي لحظات سعادة مشابهة.

غادرت مسرعاً باتجاه السعادة والأمل. وصلت إلى باب غرفتـــها التي تقع في مبنى يبعد ميلاً عن موقع سكني، وكنت طوال المسافة التي

قطعتها طائراً خطوتين وماشياً خطوة واحدة، أصغي إلى دقات قلبـــي المتسارعة ظانًّا أن قلبـــي يعلن انتصاره على السكون الـــذي لازمـــه طوال سنوات الألم التي تلت فصل التحوّل المقيت. عدت إلى الحياة من جديد، فعينا سوزي أيقظتا رغبة دفينة من الماضي بأن أحيـــا وأتبـــادل العشق. وعادت إلى ذاكرتي تلك الأبيات الرائعة التي كنت أحفظهـــا عن ظهر قلب أيام المدرسة لشاعر العراق الكبير "بدر شاكر السياب":

"عيناكِ غابتا نخيلٍ ساعةَ السَّحَر

أو شُرفتان راحَ ينأى عنهما القمر

عيناكِ حين تبسمان تورقُ الكروم".

ظلت الأبيات تتردَّد في رأسي إلى أن وصلت إلى باب الغرفـــة وقرعت الباب لترد هي من بعيد:

- أنا قادمة.

ويفتح الباب فجأةً لتلتقي عيناي عينيها، ولا أتمالك نفســـي أن أردّد على مسامعها أبيات الشعر التي تتردّد في رأسي. وتنظر هي إليّ مضطربة، لا تدري ماذا أقول، وتسألني بحيرة: إن كان كـــل شـــيء على ما يُرام. أبتسم وأرد عليها بدلالٍ واضحٍ بأن هذه أبيات غـــزل باللغة العربية، وأحاول ترجمتها للإنجليزية فأفلح في إيصـــال المعـــنى. تبتسم فرحة وتشكرني بحياء.

أصطحبها إلى أحد أفخم المطاعم في المنطقة المجاورة، غير آبهٍ بما سيترتّب على ذلك من أعباء ماديّة لاحقاً. أجلس قبالتها لأحدّثها عن محبّتي النظرَ إلى عينيها، وكم تعني لي ابتسامتها الوديعة، وكـــم هـــي جميلة، وكم حظني الله بأن أكون برفقتها هذا المســـاء. تسـر هـــي للإطراء وتخبرني كم أنا رومانسي وحالم، وتسألني إن كان الرجـــال

من بلدي يحظون جميعاً بالروح نفسها، أم أنني أتفرّد بها وحدي، فأسترسل معها بوصف رومانسي لطبيعة البلد الذي آتي منه، وكيف أن هذه البلاد أنتجت شعراء كبار. أذكر محمود درويش وأحاول ترجمة أبياتٍ من قصيدة "أجمل حب"، التي يقول فيها:

"كما ينبت العشب بين مفاصل صخرةٍ وُجدنا غريبين معاً
وكانت سماء الربيع تؤلّف نجماً ونجماً...
وكنت أؤلّف فقرة حبٍّ لعينيك غنّيتها".

أنصتت سوزي بروية وسحرتها كلماتي وأبيات درويش، وتراخت تماماً، وسلّمت راياتها جميعاً، ووافقت أن تصحبني إلى سكنها، وهناك كان لقائي بطعم أول امرأة في حياتي. هناك تذوّقت معنى آخر لالتصاق الجسد بالجسد، هناك كان للجسد حدود لا تنتهي، تبدأ بقبلة وترحل إلى حيث تلتقي بأول الخيوط باتجاه الشمس.

هذا اللقاء كان اقتناصاً لحرية أفلتت من روحي منذ أعوام ووجدتها فجأة تحلّق في مكان ما فوق عينيّ سوزي التي أهدتني نفسي للحظات. بعد أن انتهى لقائي هذا بـ "سوزي" نمت وإياها كغريبين وُلِدا في لحظة معاً والتصقا أحدهما بالآخر، دون حساب لما يتربّص بهما في الخارج أو الداخل.

استمرت علاقتي بسوزي بضعة شهور قضيناها في الأغلب بين غرفتي وغرفتها، وأحياناً في مقهى الجامعة، كما تمكّنا في أوقات قليلة أن ندلّل أنفسنا بأن نذهب إلى أحد المطاعم الفخمة، حيث كنت أحرص على أن تكون التكلفة من جيبي أنا، أي من جيب الوالد الذي كان لا يزال يدفن رأسه بالرمل؛ ظنّاً أنني أنفق النقود التي يرسلها لي على الدراسة.

في فترة معرفتي بسوزي، ازداد وضعي سوءاً من ناحية التزامي بالدراسة، وتوقّفت تقريباً عن حضور أيٍّ من المحاضرات التي يُفترض أنني قد سُجِّلت لحضورها، وكانت سوزي لا تعلم أبداً بوضعي الأكاديمي السيئ، بل كانت تعتقد أنني مبدع دراسياً، إذ إنني كنت أعمد إلى تشغيل ماكنة الكذب عليها. إلا أن "سوزي" بدأت تشتم رائحة التدهور في وضعي رويداً رويداً. وقد ابتدأ ذلك عندما تصادف وجودنا ذات مساء في أحد المقاهي مع أحد الطلبة القلائل الذين كانت تربطني بهم معرفة شخصية، وقد ابتهج لرؤيتي قائلاً بصوت مرتفع جدًّا:

- أين أنت يا رجل؟ لم نرك منذ مدة!.

واستطرد شارحاً كيف أن الأساتذة يسألون عني باستمرار لتغيُّبي الدائم عن المحاضرات. انتبهت "سوزي" لتلك المحادثة، وأدركت أنني في ورطة أكاديمية، وبدا ذلك أكثر وضوحاً عند تلعثمي في الرد عليه محاولاً إنهاء المحادثة، وإصراري على المغادرة سريعاً متذرِّعاً بألم أصابني في معدتي فجأة.

وفي الطريق إلى السكن، سألتني سوزي عن صحة ما قاله هذا الزميل، فأنكرت بشدة محاولاً إنهاء الموضوع والحديث عن ألم معدتي. منذ ذلك اليوم أصبحت سوزي تشكِّك برواياتي وبدأت ترقب كل كلمة أتفوّه بها.

وفي يوم من الأيام أتت إلى غرفتي وكان وجهها يقطر غضباً، وفتحت الباب لتجدني أستلقي على السرير أحدِّق إلى الفراغ. سألتني بصرامة إن كان لديّ محاضرات في هذه الساعة، فأنكرت تماماً، إلا أنها أخرجت من جيبها برنامجي الفصلي وأخبرتني أنني أكذب، وأنني

يجب أن أخجل من نفسي لكذبـي المتواصل. حاولت تبرير موقفي أمامها بحجج واهية، إلا أنها رفضت التعامل مع أيّ شيء قلته، وقالت لي بالحرف الواحد:

- أنت تثير فيّ الشفقة والاشمئزاز معاً، فكيف لك أن تكذب على نفسك وعليّ بهذه الطريقة؟

أنهت حديثها بأن صفقت الباب بعنف وهي تعلن انتهاء علاقتها بـي، وبأنها لا ترغب في رؤية كاذب مثلي في حياتها. لحقت بها محاولاً إمساكها ومتوسّلاً أن تسمعني، إلا أنها لم تأبه لذلك، ونفضت يدها بعنف لتخبرني أنه بإمكاني أن أذهب إلى الجحيم.

وهذا بالضبط ما فعلته، فقد ذهبت بعد هذه المشادة إلى جحيم زجاجتي؛ لأحسو منها ما يسدّ رمق غضبي وإحباطي وإحساسي بالعجز والفقدان. وبقيت أحسو هذا الألم إلى أن انكفأت دون وعي وغرقت في غيبوبة لم أستفق منها إلا في غرفة المستشفى بعد أن عثر عليّ أحدهم غائباً عن الوعي في غرفتي. غادرت المستشفى بعد سماعي لكثير من النصائح من الأطباء حول ضرورة ابتعادي عن المشروب.

لم ألتزم بأي من النصائح التي سمعتها منهم، وكررت فعلتي إلى أن انتهى أمري وأصبح وجودي في الجامعة بدون أي هدف. ففي نهاية الفصل الدراسي الثاني، وصلتني رسالة رسمية من الجامعة تخبرني فيها دائرة القبول أنني قد فُصِلت لتدني مستواي الأكاديمي، ووجدت نفسي في ورطة؛ فكيف لأبـي الذي أُثقِل حمله من الأعباء المادية لكي يراني أتخرج من الجامعة أن يتلقّى النبأ.

لملمت نفسي، وحاولت أن أتلافى الوضع القائم، وبدأت بمراسلة أبي ممهّداً لإمكانية انتقالي إلى جامعة أخرى، ومرة أخرى

برعت في إقناعه بحججي، وحصلت على موافقة منه للذهاب إلى سان فرانسيسكو، حيث أكون بالقرب من شقيقتي "ميّادة"، التي كانت قد تزوّجت وانتقلت للعيش هناك. وكالعادة وافق أبي بعد كثير من التأفّف وسيل من المحاضرات لتذكيري بوضعه المادي الشحيح وتضحياته الكبيرة لتأمين دراستي، والفرصة الأخيرة التي سيمنحني إياها هذه المرة. وككل مرة تجرّعت كلماته وأجبرت نفسي على التفوّه بوعود قطعتها على نفسي، بأن تكون هذه المرة آخر فرصة لي، وأنني سأكون على قدر توقّعاته، وسأبذل كل الجهد لأنهي دراستي بأسرع وقت ممكن. كنت أعلم علم اليقين أنني كاذب وأن رحلتي إلى سان فرانسيسكو ليست سوى خروجٍ آخر من عنق زجاجةٍ.

في سان فرانسيسكو

في هذه المدينة الجميلة الغريبة أُصِبتُ بالذهول. هنا العالم لا يبدو كالعوالم الأخرى. هنا تحتاج إلى عين ثاقبة لكي تتمكّن من أن تدرك أن من يسير بمحاذاتك في الشارع ذكر، أو أن الذي يجلس أمامك في المطعم أنثى. في سان فرانسيسكو كل شيء ممكن ومحتمل، بل منطقي. في سان فرانسيسكو، يمكنك أن تنفض عنك كل الأسمال البالية التي ابتلاك بها الله، وأن تسير عارياً من كل شيء إلا ما ترغب في إخفائه. في سان فرانسيسكو، فعل الإخفاء يمتلكه كل فرد بشكلٍ حصري دون تدخُّل من أيّ كان.

هلّلت فرحاً بالمدينة البضّة، المدينة اليافعة؛ وتفاءلت أن يكون لي قدر من الانعتاق، وأن تجد نفسي الهائمة مساحة كافية لتنطلق بحرية حيث تريد.

خصّصت لي شقيقتي إحدى غرف شقتها الصغيرة، وحرصت أن تخبرني بضرورة الحفاظ على الترتيب والنظام، إذ إن الشقة صغيرة ولا تحتمل الفوضى. وفي الوقت نفسه أبدت استعدادها للعناية بي شرط أن ألتزم بدوامي في الجامعة، وألقت محاضرات كثيرة حول ضرورة إنهاء دراستي؛ كي لا تتحمّل العائلة ما لا تستطيع تحمّله ماديًا.

كنت أصغي اليها على مضض، فقد كان ذهني بعيداً كل البعد عمّا تقول. كان ذهني يسبح في عالم آخر بعيدٍ عن آمال العائلة

وأحلامها، وبالذات أبـــي. كنت شارداً أفكر بطرائق إبداعية تؤمّن لي حبوات من زجاجتي التي خبأتها بين ملابسي، وحرصــــت أن لا تجدها أيادي "ميادة" الدائمة العبث بمقتنياتي.

توصّل ذهني المتّقد إلى كثير من الحلول، من ضمنها الانتظار إلى حين أن ينام الجميع أو الادّعاء بحاجتي للنوم وإغلاق بـــاب غـــرفتي لفترة طويلة. كنت أنتظر بفارغ الصبر كي تحين لي فرصـــة اللقـــاء بزجاجتي، كي تعينني على هضم مرحلة قادمة يبدو أنها لـــن تكـــون سهلة، إذ سأكون مراقباً طوال الوقت.

سان فرانسيسكو، كانـــت تعـــجّ بـــالعرب، إذ إن طقســـها الدافئ القريب من طقس البلاد العربية هيّأها لاستقبال كـــثير مـــن المهاجرين الفلسطينيين واللبنانيين والسوريين. كان كثير منهم يملكون مشاريع تجارية صغيرة، مثل محطات توزيع الوقـــود، أو البقـــالات، وبعضهم اتّجهوا إلى التعليم فتبـــوّؤا مناصــــب مهمـــة في مختلـــف القطاعات.

"عيسى" كان أول من التقيت بهم في سان فرانسيسكو وجذب انتباهي، فقد كان أحد النشطاء السياسيين في الجالية. وكان لقاؤنا في أحد الاجتماعات التي دُعيت إليها بهدف الترتيب لنشاط سياسي في الجامعة تضامناً مع الأسرى في سجون الاحتلال. بدا لي عيسى حين التقيته شارداً، متهكّماً، مستفزاً، ويوحي بأنه إنســـان متعجـــرف لا يدين بشيء.

ظننت في البدء أنني لن أرغب في أن أكون على صلة به بـــأي شكل كان، ولكن اتّضح لي فيما بعد أن ما يخبّـــه داخـــل هـــذه الشخصية مختلف. لقد كان يرتدي عباءة لا تليق بـــه، إذ أخفـــى في

طياتها ذلك الصغير المتلمس طريقَه بتوجُّس وخوف، لأن شعوراً كان يلازمه بأن الإنسان ابن الخيانة، وأن الصديق حالة لا وجود لها.

وقد اتضح لي فيما بعد أن فلسفته هذه أتت من خيانة صديقته الفلسطينية المسلمة، التي ارتبط بها وأحبها حدّ الجنون، وعندما تقدم لخطبتها رفضه أهلها بشدة لاختلاف الدين، وما أغضبه حقيقة، أنها لم تدافع عن هذا الحب الذي ارتبطا به، وفضّلت أن تنصاع لرغبة أهلها وأن ترفضه هي أيضاً. ومنذ ذلك الحين فقد عيسى أي اهتمام بالارتباط، واعتبر الزواج حالة مرضية يختارها الأشخاص طواعية، ولكنهم لا يشفون منها أبدا.

وبعد أن توطّدت علاقتي به أصبح أكثر انفتاحاً، وأسرّ لي ببعض من مكنونات نفسه المختبئة وراء تهكّمه الدائم. لقد أصبح عيسى ملاذي من شروري، والحضن الذي ألجأ إليه، عندما يشتد وقع هيمنة ذلك القابع في داخلي. كنت أذهب لزيارته في شقته حاملاً بيدي زجاجتي وأدير معه سهرة تستمر حتى الصباح، وتنتهي في العادة بأن أتقيّأ ما في معدتي، أملاً في استفراغ ذلك الشرير المتربّص بي، لأستفيق ظهر اليوم الذي يليه، وأنا مهزوم ومحطّم، لأعاود اجترار فعلي مراراً وتكراراً.

انتبه صديقي عيسى لوضعي المزري، وحاول أن يثنيني عن زجاجتي، إلا أنني لم أنصع لنصائحه، واستمررت في فعلي. بدأت ألحظ عزوفه عني، وتهرّبه الدائم بحجج واهية من لقائي؛ وأدركت أن عيسى قد فقد الأمل من إمكانية عودتي عن زجاجتي. ومرة أخرى اجتاحتني مشاعر الهزيمة، وتمكّن مني ذلك المتربّص داخلي وهوى بي عميقاً إلى داخلي التي طمستها باستئناسي لزجاجتي.

فقدت وجه عيسى المنصت تعاطفاً مع حكاياتي، وكلّفني ذلك كثيراً؛ إذ إنني ولإحساسي بالهزيمة والفقدان مرة أخرى قبعت ساكناً مختبئاً وراء غضبي المفتعل، وعدت أثير زوبعة على كل شيء. وأولى ضحايا غضبي من نفسي كانت شقيقتي ميادة، فقد أصبحت أتعمّد إغضابها بأن أفتعل معها نقاشات حول مواضيع عائلية تثير حفيظتها، وينتهي الأمر بلجوئي إلى تحطيم بعض الأواني في مطبخها، فتحتدّ هي غضباً، وتشتمني بكل ما في قاموسها من شتائم.

أغادر بيتها وألجأ إلى بعض الأصدقاء، وهناك تزداد جرعات غيابي عن نفسي داخل زجاجتي فيزداد الأمر سوءاً. أصبحت هنا أيضاً، في سان فرانسيسكو، أكثر تيهاً، وانعدمت بوصلتي نهائيًّا. فلم أعد أذهب إلى جامعتي رغم أن حجتي في أنني أكره تخصّص الهندسة، قد انتهت بقدومي إلى سان فرانسيسكو، فقد أقنعت والدي أنني سأفلح في إنجاز مهمة تحصيل الشهادة إذا درست ما أحبه، فوافق أن أحوّل دراستي إلى تخصّص العلوم السياسية.

في تلك الفترة كثّفت مراسلاتي لـ "أمل"، فقد كنت أكتب لها كل يوم تقريباً، إذ إني كنت أجد في الكتابة لها ما يخرجني من عجزي عن العودة إلى واقع الحياة، وأرى في تواصلي معها تواصلاً مع الواقع.

كنت في رسائلي أوهمها وأوهم نفسي أنني لا أزال على قيد الحياة. ولهذا فقد تماديت في رسم صورة جميلة عن واقعي، وتخيّلت على الورق ما كنت أتمنى حصوله في الواقع. كانت أمل ساذجة في قياس مدى صدقي في الرسائل التي تصلها خاصة أنني كنت، ولمعرفتي الجيدة بارتباط أمل الوثيق بقضايا الوطن، أتعمّد أن أكتب في بداية

كل رسالة ديباجة شوقي وحنيني لكل تفاصيل الوطن. ولهـــذا فقـــد ساهمت سذاجتها في إقناع أبـــي بأن أموري تسير على ما يرام، وقد تجاوب مع طلباتي المالية التي كنت أحاول تمريرها بين فينةٍ وأخـــرى بحججٍ مختلفة.

* * *

أنا وأمل

"أمل" بالنسبة إليّ كانت توأم روحي، وصديقتي قبل أن تكون شقيقتي. هي أصغر شقيقاتي، وقد مُنحت هذا الاسم إعراباً عن رغبة العائلة بإنهاء ملف الإناث، والتحوّل إلى ملف الذكور. وبالفعل فقد وُلِدت أنا بعد أمل بعام وبضعة أشهر. ومنذ قدومها إلى الحياة وهي مرتبطة بي بشكل أو بآخر، فقد مهّد قدومها لقدومي.

ولتقارب السن بيننا، كثيراً ما كنا نلهو معاً. كما أنني كنت أستأنس وجودها إلى جانبي وقت النوم، حيث كانت أسرتنا الصغيرة تتلاصق كما أجسادنا بفرح طفولي. وكنا كأننا نسافر معاً في رحلة طفولية كل ليلة، ننام نوماً هادئاً ومطمئناً، يصنع كلٌ منّا حلمه بنفسه، ويرويه للآخر عندما نفتح أعيننا صباحاً.

نَمَت بيني وبين أمل تلك العلاقة المختلفة، المتميزة التي بقيت حتى اللحظة الأخيرة قبل دخولي النفق. لم يكن صدفة أن تكون "أمل" آخر من تراه عينيّ قبل أن أسير قُدُماً باتجاه النفق.

كانت "أمل" طفلة تنعم بسلام مع نفسها، ورغم كونها الأصغر بين شقيقاتي، وأكثرهن احتمالاً لشعور الغيرة من التميّز الذي كنت أحظى به من والدي، إلا أنها لم تشعر أبداً بأيّ تنافس معي، بل على العكس، فقد كانت تجلس معي عندما يقوم أبي بتدريسي واجب اللغة الإنجليزية الذي كنت أحظى به دون شقيقاتي، حيث كن يرتدن

مدارس وكالة الغوث، ولا يدرسن هذه اللغة قبل الصف الخامس الابتدائي. أمل كانت تجلس مصغيةً وتردّد معي الكلمات التي يلقّنني إياها أبي. كان لهذه الدروس أثر على حياة أمل التي أحبت اللغة كثيراً، وأصبحت فيما بعد مدرِّسة لغة إنجليزية.

وبعد أن اشتد عودنا وكبرنا ونبت لي شاربان، ولأمل نهدان افترقنا في نومنا، ولكن لم نفترق في حلمنا. كانت أمي، ولضيق مساحة البيت، وتوفر غرفتيّ نوم فقط، قد خصّصت إحداهما لها ولوالدي، والثانية لأخواتي الإناث. وكانت تضطر لوضع فرشة لي في غرفة الاستقبال، وكان هذا بالنسبة إليّ ملاذاً جميلاً لبعض الخصوصية.

كنت أطلق عنان أفكاري كل ليلة سامحاً للخيال أن يسرح بي بعيداً عن عالمي الصغير، وأن ينطلق بي إلى عوالم أرى نفسي فيها وقد ترأستُ تنظيماً سرياً سميته "فيالق صلاح الدين"، وكنت أستعين بدخان سجائري التي أنفثها بعد أن ينام الجميع، وأطمئن أن جميع من في البيت أصبحوا في عالم آخر بعيداً عن رائحة سجائري، وأرتب شؤونه التنظيمية وأهدافه الكفاحية. وعندما تبدأ جفوني بالتثاقل وأشعر بالنعاس، أحرص على أن ألملم أعقاب سجائري وأضعها في ورقة أنتزعها من دفاتري المدرسية، وأخبئها في حقيبتي كي أتخلص منها فيما بعد.

كانت أجمل اللحظات هي تلك التي كان يخلو فيها البيت؛ تغادر أمي لزيارة صديقاتها، وتصطحب معها أخواتي، فأغمز لأمل طالباً منها البقاء معي، وتوافق أمي كي لا تتركني وحدي. كنا نجلس ونتحدث، وأجرؤ أن أشعل سجارتي التي مع الوقت أصبحت

مشتركة بيني وبينها. كنا نتحدث عن كل شيء، عن الوطن المسلوب وعن حلمنا أن نكون جزءاً من كل. كنت أخبرها عن "فيالق صلاح الدين"، وأستشيرها في التفاصيل الهيكلية والإدارية لهذا التنظيم. كنا نتطرّق أيضاً لأمور الدراسة والأصدقاء. وأبوح لها بأسرار قلبي وأخبرها عن إعجابي السري بزميلتي "هناء" التي كانت تسحرني بعينيها الناعستين، وكيف أنني كنت كلما نظرت إلى عينيها تراودني أبيات شعرية لمحمود درويش:

"أيّ شيء ردّ عن عينيك عينيّ سوى إغفاءتين وغيوم عسلية قبل هذي البندقية!".

كانت أمل تعشق هذه الأبيات لدرجة أنها كتبتها على جدار غرفة النوم، ما أغضب أمي، وعاقبتها بأن منعتها من مغادرة الغرفة قبل أن تمحوَ أثرها عن الحائط. اضطرت أمل إلى فعل ذلك مرغمة، ولكنّنا أعدنا كتابة الأبيات على ورقة وألصقناها على الحائط.

سبقتني أمل في البحث عن ذاتها الوطنية وانتسبت لاتحاد الطلبة الفلسطيني، الذي كان أحد أذرع التنظيم الشيوعي الفلسطيني. أما أنا فقد كنت لا أزال أعيش مرحلة إثبات ذاتي للمجموعات الضاربة، وأعمد إلى القيام بمهماتٍ ليلية أُوكِلت لي من قبلهم، لا يعرف عنها أحد سوى "علي" الذي قرر منحي فرصة إثبات ذاتي، و"أمل" التي كانت الحارس الحريص على إنهائي لهذه المهمات بسلام.

أرى نفسي الآن أغادر بيت الطفولة، متسلّلاً ليلاً وفي يدي علبة دهان. أمل تقف عند الباب مرتعبة خوفاً، توصيني وصاياها المتعددة:

- أسرعْ، ولا تتأخرْ كي لا يستيقظ أبي ويكتشف غيابك. حاول أن لا يراك أحد....

- اسمع! انتبه جيداً أن لا يكون أحد يراقبك، وأحكِم اللثام على فمك ووجهك؛ خوفاً من البرد والعيون المترقبة... سأظل مستيقظة إلى أن تعود....

أخرج الآن وأنا أحمل علبة الدهان وكأنني أحمل بندقية محارب. أختار أحد الجدران البعيدة عن البيت؛ كي لا يشك أحد بأنني صانع الكلمات الملتهبة على جدران المدينة. أحاول أن أتبع إرشادات "أمل" وأشد اللثام على وجهي وألتفت يميناً ويساراً، وبيد مرتعشة أخطها بأحرف حمر: "عاشت فلسطين حرة عربية". تولد الكلمات من فوهة العلبة، وكأنها تخوض مخاضاً صعباً. أدهش لرؤيتها على الجدار، أشعر بنشوة غريبة. تلك كلماتي أنا، تخرج وكأنها تصرخ بقدرتي على الفعل. أعود راكضاً، مستأنساً بصوت عصافير تزقزق على أشجار الصنوبر العالية. أشعر بلفحة برد تضرب وجهي وأعجب بنفسي، أنا الصغير المدلل استطعت أن أخرج من عنقود اللؤلؤ المطوّق حول رقبتي، وأن أفرطه ليصبح حروفاً تزين جداراً من جدران المدينة.

أعود لأجدها منتظرة، تأكل أظفارها قلقاً، وخوفاً من أن يفتح أحد النائمين عينيه فيكتشف فعلتي وفعلتها. نعود إلى أسرّتنا وننام هادئين، فقد مضت الليلة - والحمد لله - على خير.

"أمل" هي من اخترتها لأبوح لها بسر ما جرى لي في المعتقل. لم تكن قادرة على استيعاب ما حصل، ولم تفعل شيئاً سوى البكاء، محاولةً التخفيف من حدة اختناقي بالبكاء. أفهمتني أن ما حصل كان رغم إرادتي، وأنني يجب أن لا أؤنّب نفسي. كثيراً ما ردّدت لي كلمات لم تستطع اختراق حاجز قلبي، وحاولت أن تخفف من وطأة الحدث، بأن تقنعني أنني ما كنت لأقدر على مقاومة الفعل

القبيح الذي حلّ بجسدي، بل إنها ذهبت أبعد من ذلك، في محاولة لإقناعي بأنني يجب أن أكون فخوراً وأن أرفع رأسي عالياً.

لم أكن أصدِّق أمل؛ لأن عينيها كانتا تمتلئان دموعاً كلّما تحدّثنا عن ذلك الحدث القبيح، وكأن دموعها كانت توحي لي بذنب اقترفته؛ فيزداد إحساسي بالانعدام، وأغوص أكثر داخل أعماقي لأجده، ذلك الغاضب المتربّص بي، يستخفّ بحديثها ويستهزئ بها، محاولاً استثارتها كي يثبت ضعفي، وعدم مقدرتي على المقاومة، فأبدأ بافتعال الصراخ، وألقي الاتهامات جزافاً على الجميع، ولا يخلو الأمر من بعض الشتائم التي تستثير حفيظة "أمل"، فينتهي بنا الأمر إلى شجار، يخرجني من بيتها غاضباً مهدِّداً بفعل أحمق.

بالرغم من ذلك فإني، وفي قرارة نفسي النقية، كنت على يقين من أن "أمل" تكنّ لي كثيراً من الحب، وأنها في الحقيقة تحاول أن تستعيد "عامراً" الذي فقدته منذ تلك اللحظة؛ لحظة التحول. أذكر الآن كيف أنها كتبت لي رسالة في إحدى المرات في محاولة منها لاستعادتي. كانت تلك رسالة دعم ومحبة، تسلّحت بها يوم غادرت إلى الأردن، إذ كنت قد قررت أن أبذل بعضاً من المجهود بعد عناء طويل من صراعي مع نفسي؛ فاتصلت بصديق طبيب يعمل في الأردن، وحدّدت معه موعداً للعلاج من دائي المتأصل في ملاقاة نفسي الشقية، من خلال ملء جوفي بكأس أو كأسين. كانت "أمل" قد كتبت لي تلك الرسالة، وطلبت مني أن لا أقرأها قبل مغادرتي الحدود.

المحاولة

خرجت يومها وأنا أكاد أنشطر شطرين. لم أعد أقوى على تحمّل ذلك الشرير الممسك بـي وكأنه قريني، ولا ذلك التائه، الخائف المختبئ خجلاً من فعل لم يقترفه. خرجت من بيتي حاملاً حقيبتي ويأسي، واتجهت إلى نقطة العبور مرة أخرى. هذه المرة لم تجتحني الأحاسيس نفسها بخيانة وطني؛ لأنني أغادره، بل كان إحساسي معكوساً تماماً، إذ انتابني شعور مرير بأن وطني قد خانني؛ هذا الوطن تمكّن مني، ونخر عظامي وألقى بـي على قارعة الطريق.

اتّجه بنا السائق في طرق وعرة، فقد كانت المدينة ككل المدن الأخرى في وطن الانتفاضة الثانية، تشهد دماراً آخر، دماراً في كل مكان؛ حجارة تملأ الطرق المعتادة، وجنود متربصون برماتها، وهم يغلقون الطرق في وجه المارة.

نجحنا في الخروج من المدينة، ولكننا علقنا في الطريق المؤدي إلى أريحا، حيث المعبر الوحيد إلى الأردن. أوقفنا السائق في بداية واد القلط، وطلب منا ملاقاته في الجانب الآخر، مفسراً لنا أن علينا فعل ذلك إن أردنا السفر. خرجنا نحمل حقائبنا ونسير هابطين الوادي السحيق. لم يحملني جسدي الذي أصبح ثقيلاً جداً من كثرة السعرات الحرارية، التي تمنحه إياها زجاجتي اللعينة. انزلقت قدمي، ورأيت جسدي ينحل عني مرة أخرى ويتدحرج إلى قاع الوادي.

وعندما استقر جسدي في قاع الوادي، لحقت به متفقّداً ما استبدّ به من ضرر. يدي اللعينة كانت ثقيلة مؤلمة، لا بدّ وأنها كُسرت. لملمت نفسي، وبألم لا يُحتمل، مشيت متغاضياً عن حقيبتي التي لم أعد أدري أين استقرت. تابعت المسير باتجاه الشارع العام، لاعناً اليوم الذي جاء بي إلى دنيا فيها وطن محتل وممزّق.

وصلت إلى الحدود رغم ألمي واستطعت الاستمرار بالرحلة مندفعاً باتجاه الخلاص.

في الطريق إلى عمان، ورغم الألم الذي يقتلني بسبب ذراعي المكسورة، إلا أن رسالة أمل كانت تلحّ عليّ بأن أخرجها من جيبي لأقرأها. بذلت جهداً كبيراً لإخراجها من جيبي، وبألم كبيرٍ اعتصر يدي وفؤادي قرأت السطور:

- هل أستعيدك؟ هل أستعيدك وقد فرّق ما بين سريرينا كوم من الغربة....
- هل أستعيدك كما لو أن من الممكن أنك ستستعيد نفسك؟ وستخضر عيناك وتبرق وجنتاك من جديد! أتذكّر كيف حرصنا أن نبقي سريرينا متلاصقين؛ لكي نحلم معا الحلم الطفولي نفسه، بأن نكبر، وتطول قامتنا، ويشتد عودنا ولكن، نبقى متلاصقين. أتذكر كيف كنا نستعجل استحضار الزمن؟
- لماذا استحضرناه مبكراً؟ لماذا لم نبقَ صغيرين، تحضرهما اللحظة ويدفئهما الحلم؟ لماذا استعجلنا استحضار الزمن الذي اختطفك ليطفئ اخضرار عينيك وبريق وجنتيك؟ لماذا افترقنا، كل إلى جهنمه، و لم تطل أعناقنا أيًا من أحلامنا؟

- سلبوك نفسك في لحظة غادرة من الزمن؛ استفزهم اخضرار عينيك ونقاء وجهك؛ حاولوا تشويهك فمزّقوك؛ نثروك في الهواء قطعاً صغيرة مبعثرة فلم أعد أراك. ومنذ تلك اللحظة، وأنا أحاول الإمساك بك، فأمسك رجل سريري الصغير، مستحضرةً خُطاك ولا تأتي؛ أغفو وأحلم الحلم الذي حلمناه معاً، علك تأتي فيه، ولكنك لا تأتي. بقيت معفّراً، مبعثراً، ممزّقاً، هارباً من وحش اللحظة الغادرة، ممسكاً بتلابيب اللحظة، منتظراً المعجزة.
- وأنا أصحو كل يوم على حلمي الطفولي. أركض معك، ونضحك معاً بصوت يجلجل في أعماقنا. نقتسم أسرارنا وخبزنا ودمنا، نصحو مخالفين للتعليمات، ونتسلّل إلى حيث نواجه الليل بقلوبنا البريئة، ونغمس أيدينا بالحبر الذي يصنع مستقبلاً على جدران المدينة. نخبئ الأوراق السرية في كتبنا ونتبادل ليلنا ونهارنا.
- فهل أستعيدك الآن أخاً ورفيقاً وصديقاً؟ وهل تستعيدك الأرض التي عشقناها نبضاً يتدفّق في أوصالك، لكي يصل اخضرار عينيك؟

طويت الورقة وأعدتها إلى جيبي من جديد، ومسحت بباطن كفي دموعاً ذرفتها على نفسي، لأنني أدركت أن "أمل" ستعيد كتابة هذه الكلمات في رثائي القريب. كما اجتاحتني حالة من الشوق الجارف لأيام طفولية لم تطل.

* * *

بصحبة الأمان

صوته الرخيم وابتسامته المطمئنة أشعراني بدفء يدبّ في أوصالي. استسلمت كليًّا لتلك اليد التي سحبتني إليها، وأعادت إلي روحاً اشتاق لها جسدي منذ زمن سحيق.

تمدّدت على مقعد وثير، وبجانبي باقة ورد تطغى رائحتها العبقة على المكان، فيبدو أكثر أناقة وألفة. وعلى الحائط المقابل عُلّقت لوحة لنساء إفريقيات يحملن أطفالهن في حمالة قماش تلتف على خصورهن وينهمكن في حصاد الزرع. لوحة جميلة أحيت لدي حنيناً لحضن أمي الدافئ وحليب ثديها المتدفّق حناناً. حسدت هؤلاء الأطفال وتمنيت لو أنني ألتف بقماش، وأتعلق على خصر أمي، وأغفو بأمان، حيث لا ألم ولا هموم إلى الأبد.

تقع عيناي على صورة صديقي الطبيب معانقاً جمال عبد الناصر، وأتأمّل وجه ذلك الزعيم التاريخي، فتلفت انتباهي ابتسامته الكبيرة التي توحي بطمأنينة وتفاؤل، وأشعر بأبوية تلك الابتسامة، وأتمنى لو كان لأبي مثلها. لو أنه ابتسم مرة واحدة مثل هذه الابتسامة، لربما فعلت مفعولها في قهر ذلك الذي سكنني وفهرني. يقطع تأملاتي صوته الرخيم ولهجته الآمرة بحنو، ويبادرني بأول سؤال مزّق فيه أضلعي:

- عامر، لماذا تشرب؟

هَوى ذلك السؤال في قاع أمعائي، وارتطم بوجه ذلك القبيح الذي ظننت للحظة ما، أنه قد غادرني. ردّدت بصوت بعيد وكأنه يأتي من فمه هو:

- لأنني أكره كلَّ من حولي. هم جميعهم مسؤولون عما جرى لي.

وبابتسامة سحبني مرة أخرى من براثن القبيح. وفجأة، تراءت لي وجوه كل من أوقع اللوم عليهم، أبي المهموم... أمي القلقة... أخواتي... وأطفالي. استهجنت كيف لي أن ألوم هؤلاء؟

رد بالوتيرة الدافئة المطمئنة نفسها:

- من هم هؤلاء الذين تكرههم؟

بدون أي تردد صرخت بملء فمي:

- أكرهه هو... كابتن "أورلي"... نعم، كابتن "أورلي" هو من أكرهه... فأنا لا أكره أبي، بل أحبه ذلك المسكين المهموم... لا أكره أمي، بل أعشقها؛ فهي التي تغمرني حبًّا وحناناً... أحب أمل وميادة وأخواتي جميعاً.

ثم، بلا وعي، ظللت أصرخ بملء فمي:

- كابتن "أورلي"... أكره كابتن "أورلي"! سأقتل كابتن "أورلي"، سأقتله. كابتن "أورلي" يسكنني منذ أن اغتصبني، وبصق في وجهي.

رأيت نفسي أغوص في عالم آخر. رأيتني أدخل تلك الغرفة الصغيرة المذلّة، غرفة التحوّل، وأقف أمامه، ذلك القبيح وأضحك بصوت مجلجل وهو يضع يديه على أذنيه ويذوب أمامي رويداً رويداً حتى يتلاشى تماماً، وأنا ما زلت أضحك بصوت يجلجل أعماقي.

استفقت لأجد نفسي وقد تمدّدت على سرير وثير في غرفة صغيرة، ذات جدران بيضاء بياض الثلج. أحسست بألم في أمعائي ورغبة شديدة في التقيّؤ. نزلت عن السرير واتجهت باحثاً عن دورة المياه، وهناك أفرغت كل ما في جوفي. تهيأ لي حينها أنني أصبحت معافىً من كل ما انتهكني، وعدت جديداً كأنني وُلِدت اليوم.

قضيت بضعة أيام في مركز النقاهة الخاص بصديقي الطبيب. نبش صديقي في داخلي عميقاً، وحاول قدر المستطاع أن يصل إلى القاع، أن يحفر بمحص عينيه الواثقتين، ووجهه الذي يملأه شارب غليظ، وعينيه الصغيرتين المتدفقتين نوراً، ليصل إلى أمعائي. استخدم كل طاقته وعلمه وخبرته كي يدخل إلى ذلك المتربص بي، ويزعزع استقراره العميق ويجبره على أن يغادر دون رجعة. آلمني صديقي مراراً، أيقظ لديّ كل لحظة مهانة اختبرها عمري اليافع، كل لحظة إحباط واجهها عقلي الباطن؛ كشف صديقي ما حاولت طمسه منذ أن اجترّني ذلك السافل الحاقد الكريه. أخرجه إلى السطح ووضعه أمامي عارياً قبيحاً، ودفعني كي أبصق عليه مراراً وتكراراً، حتى شعرت أن الحمل الذي أثقلني طوال عقدين قد زال.

وأمضينا أنا وهو بقية الوقت في أحاديث سياسية، فقد كان هذا الطبيب ناصري، وكان قد سُجِن في أقبية سجون النظام المصري، عقب استلام السادات الحكم في مصر. لقد عُذِّب صديقي الطبيب لدرجة أنه أصيب بشلل مؤقّت، ولهذا، فقد جمعتني به تجربة مماثلة، ما زاد إيماني بإمكانية انتصاري على فعل جلادي بمساعدته.

تحدّثنا كثيراً عن الوضع السياسي الراهن، وعن إمكانية التغيير في العالم العربي، وتوافقنا حول كثير من الآراء، بخصوص ضرورة

أن يحدث تغيير في العالم العربي، لا سيّما في مصر، كي نستمكّن نحن الفلسطينيين من استعادة الأمل في التحرير. حرص صديقي الطبيب أن يبقى بصحبتي إلى أن أنام، كي لا يتركني عرضة لضعفي أمام زجاجتي. وبعد بضعة أيام، بعد أن زوّدني ببعض الأدوية المضادّة للاكتئاب، ورقم هاتفه الشخصي، سمح لي بالمغادرة.

بعد أن ودعني طبيبي بابتسامته المطمئنة، وانتزع مني وعوداً قطعتها على نفسي بأن لا أعود إلى ملاذي الوحيد (زجاجتي)، غادرت تلك العيادة التي أشعرتني بأنني، وللمرة الأولى، أفضح سري المدفون في أعماقي وأنبشه وأبدأ ببعثرته، إلى أن يتلاشى وأشفى أنا من ثقل احتفاظي به كل هذه السنوات.

في طريقي إلى الخارج، تحسّست بطني لكي أطمئن أن ذلك الدنيء لم يعد يختبئ في أعماقي. أصابتني فجأةً غصّة في حلقي، وشعرت بألم قديم في أمعائي ذكّرني برائحة مشروب معتّق. أغلقت أنفي وتغاضيت عن شعور الغصّة ذلك ومشيت سريعاً محاولاً الهرب من باب تلك العيادة. حاولت طمأنة نفسي بأن هذه الغصّة انتابتني، لأنني أخرج إلى العالم وأنا مكشوف الرأس، ليس لديّ ما يحمي انتصاري على هذا الوغد الخانق في داخلي.

في خطوتي الأولى إلى العالم، قررت أن أستريح في مقهى وأستمتع بفنجان من القهوة. جلست في مقهى "ورد وكتاب" في شارع الوكالات، وأخرجت هاتفي لأتصل بأمل. ردت من الجانب الآخر:

- أيوه، مين بيحكي؟

قلت منفعلاً:

- هذا أنا، أنا يا أمل، لقد تعافيت واستعدت نفسي وسأثبت لك ذلك. لم أعد بحاجة إلى صديقتي الزجاجة! أمل، لقد عدت كما كنت قبل أن يسكنني الآخر القبيح! أمل، ليس هناك سوى عامر... أنا عامر يا أمل... سأعود قريباً وسأعوِّضك عن كل أيام العذاب التي تحمّلتِها من أجلي... أمل، لا تنسي أن تخبري أبي وأمي أنني أحبهما جدًّا، جدًّا...

أغلقت الهاتف وشعرت أن شحنة نشاط وانتعاش دبّت في أوصالي. خرجت من المقهى ومشيت باحثاً عن فندق أقضي فيه ليلتي هذه، إلى حين عودتي إلى البلاد.

عود على بدء

بعد عودتي، لم ألمس زجاجتي. لم أقترب منها و لم أشم رائحتها. كنت كلما جرفني الشوق إليها، أستحضر وجه ذلك الطبيب الصديق، وأستذكر نظرات الطمأنينة المنبعثة من عينيه، وأقسم إنني لن أخون وعدي له. اتّخذت من عينيه دليلاً لي، فأينما تلمّست رغبة دفينة بالنكوص والاستسلام، أشد رحالي نفسي باتجاه ذلك الأمان الذي منحني إياه في تلك الغرفة الصغيرة في الدوار الخامس لجبل عمان، وكنت أستذكر كل ما قاله لي حول قوتي الكامنة بأن أهزم المتربِّص بي، القابع في داخلي.

تحوّلت حياتي في ذلك الوقت هدنةً جميلةً مع نفسي، بدأت أرمِّم علاقاتي مع مَنْ حولي، فأصبحتُ أكثر قرباً من أبي، وبدأت أراه بعين أخرى بعيدة عن اللوم والعتاب، وأصبحت أكثر احتمالاً لمزاجية أمي، وقضيت وقتاً أطول بصحبة أطفالي، اعتنيت بهم وأغدقت عليهم بما استطعت ابتياعه من ألعاب وملابس.

كنت أصعد يوميًا درجة واحدة في سلّم انتصاري على المتربِّص بي، وكلما بزغ فجر يوم جديد، ازداد إحساسي بمساحة فارغة تسلّل إلى دواخلي. بدأت أفكر بإنشاء مشروعي الخاص واتجه تفكيري إلى مركز للدراسات والترجمة. ابتدأت بدراسة أولية للمشروع، وعمدت إلى الجلوس في مكتبي في البيت أتصفّح

الإنترنت، وأقلب الجرائد، محاولاً إيجاد فكرةٍ نيرةٍ تقودني إلى إبـــداع مميز. كما أنني في الوقت نفسه، كنت أبحث عن وظيفة تليق بـــي، فأرسلت سيرتي المهنية لكثير من المؤسســات اللامعـــة؛ في محاولـــة للحصول على وظيفة بدخل ثابت.

استمررت بفعل ذلك أياماً متعدّدة، وكنت في تلك الأثنـــاء لا أزال أحتفظ بهدوئي مع نفسي رغم أن رغــبتي بزجــاجتي كانـــت تراودني أحياناً، إلا أنني كنت أقمعها بشدة، وأصرف تفكيري عنـــها بتصفح الإنترنت.

وبينما كنت أطالع بعض مواقع الصحف الأردنية، وقع نظـــري على خبر أصابني بالذهول حول انتحار طبيب نفســـي مشـــهور في عمان. تنقّلت عيناي بسرعة على السطور وقلبـــي يكاد يخرج مـــن ضلوعي، متوجّساً من أن يكون الاسم أو الرسم مألوفاً. لم تسـعفني أمنياتي بأن لا يكون المنتحر طبيبـــي، فقد لمع اسمه ما بين الســطور مؤكّداً مخاوفي. بحثت عن رقم هاتفه المخزن في هـــاتفي المحمـــول، واتصلت بالرقم لترد عليّ السكرتيرة الآلية معلنة أنه لا يمكن الوصول إلى هذا الرقم حاليًّا. أيقنت تماماً أن طبيبـــي خذلني، وسبقني إلى عنق الزجاجة. فجأة أحسست بثقل كبير في أحشائي وعـــاودني شـــعور المغتصَب المهان، وترافق هذا الشعور مع رغبـــة كـــبيرة بالانـــدثار، بالاضمحلال؛ ما أجّج لديّ رغبة دفينة بأن أروي ظمأي بزجاجتي.

انطلقت بعد لحظات بسيارتي كالمجنون، باحثاً عن مكان أبتـــاع منه زجاجة تشفي غضبـــي وإحباطي، وركنتها عند أول حـــانوت لبيع الشراب، ونزلت بسرعة البرق خوفاً من أن أتردّد في فعل ذلك. كان هناك في داخلي شعور بالذنب لما سأقترفه الآن، ولكني قمعتـــه

سريعاً، واندفعت إلى داخل الحانوت. تناولت زجاجة ودفعت ثمنها دون أن أنبس بكلمة واحدة مع صاحب الحانوت. وفي اللحظة التي استقررت بها داخل السيارة، فتحتها وأفرغت نصفها في جوفي.

انتهى مشروعي الخاص منذ تلك اللحظة، كما انتهى تماماً مشروعي الشخصي بأن ألوذ بالفرار من ذلك الذي تربّص بي منذ عقدين أو أكثر. استسلمت نهائيًا لذلك اللعين، وأيقنت أنني لن أشفى منه أبداً. فقد قتلني في ذلك اليوم عندما انتهك جسدي وتربّع في أعماقي. لم يعد هنالك متّسعٌ لي، لم يعد هنالك متّسعٌ لي. أنا ذاهب لملاقاة موتي المؤجّل.

موتي المؤجَّل

رجاء رنتيسي

الحبيبة أمل...

أترين اللذين يجلسان أمام البيت؟

إنهما طفلان كطيف الحلم

انظري جيداً لِما يحملان

الطعم ذاته الذي ذاقه آباؤهما

ما هو مقدّر سيحدث

سيعترفان يوماً ما بحسرةٍ وأسى

أنني قد قلت الحقيقة


ISBN 978-614-01-1690-0


الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015


الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

